

مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع

سيد خميس

# القصص الديني

## بين التراث والتاريخ



الأعمال الخاصة



الهيئة المصرية  
للكتاب

**القصص الديني  
بين التراث والتاريخ**



# القصص الديني بين التراث والتاريخ

سيد خميس

---

## على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسر فى تناول الجميع ليضيع نهمه للمعرفة دون عناء ماذى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتمدة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير هرجان

---



**مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١**  
**مكتبة الأسرة**  
**برعاية السيدة سوزان مبارك**  
**( الأعمال الفكرية )**

**الجهات المشاركة :**

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية  
وزارة الثقافة  
وزارة الإعلام  
وزارة التربية والتعليم  
وزارة الإدارة المحلية  
وزارة الشباب  
التنفيذ : هيئة الكتاب

**القصص الديني بين التراث والتاريخ**

سيد حميس

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د. سمير سرهان

طبعة خاصة من ميريت للنشر والمعلومات لمكتبة الأسرة ٢٠٠١

(١)

العودة للتراث.. لماذا؟



عرف العرب منذ القدم مفهوم "التراث" بجانبيه، أو وجهيه:  
 المادى والروحي. واستخدموا كلمة الإرث والميراث فيما  
 يتصل بالجانب الثقافى والروحي.

وإن كان القرآن الكريم قد استخدم كلمة التراث فى الإشارة  
 إلى ما تركه السلف للخلف من موروث مادى أو معنوى.. مثل  
 قوله تعالى: "وتأكلون التراث أكلا لما" ومثل قوله تعالى على  
 لسان النبى زكريا: "قهب لى من لدنك ولما يرثنى ويرث من  
 آل يعقوب" ويفسر لسان العرب الآية بأن النبى زكريا أراد أن  
 يهب له الله من يرثه، ويرث النبوة من آل يعقوب. ويقول النبى  
 عليه الصلاة والسلام: "نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما  
 تركناه فهو صنقة". ويروى أن أبا هريرة قال لبعض  
 الصحابة: انتم هنا وميراث محمد يوزع فى المسجد، ولم يكن  
 فى المسجد إلا جماعة تقرأ القرآن وتذكر الله، فكانه أراد من  
 هؤلاء الصحابة المشاركة فى الميراث الذى أوحى إلى النبى.

ويستخدم الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم كلمة التراث  
 بدالائها المعنوية فى معلقته الشهيرة، مشيرا إلى وراثة المجد  
 والمفاخر والمناقب العظيمة التى يعتز بها العرب، يقول:

ورثنا مجد علقمة بن سيف أباح لنا حصون المجد دينا  
 ورثت مهلهلا والخير منه زهير نعم نخر الذاهيرينا

وعتبا وكثوثا جميعا بهم نلنا تراث الأكرمين  
ويرى الدكتور أكرم العمري في كتابه "التراث والمعاصرة"  
أن التراث الإسلامي هو كل ما ورثناه عن أباينا من عقيدة  
وتقاليد وقيم وأداب وفنون وصناعات، وسائر المنجزات  
الأخرى المعنوية والمادية، بما فيها الوحي الإلهي (القرآن  
والسنة) الذي ورثناه عن أسلافنا.. ولكنه يميز التعامل مع  
الوحي الإلهي عن التعامل مع باقي مفردات التراث الأخرى،  
في عدم قبول الوحي الإلهي للانتقاء أو الاختيار، أو التطويع  
للواقع، وطرائق التفكير، لتوظيفه في تحقيق مصالح عامة أو  
خاصة، فالوحي الإلهي إطار يحكم الحياة، ولكنه يدعها تتطور  
داخله، فإذا انفلتت خارجه فقد وقع انحراف لابد من تقيمه  
( ) وأما المنجزات البشرية الحضارية والثقافية فإنها قابلة  
للانتخاب والتوظيف، وفق الرؤية المعاصرة وحسب الحالة  
والمصلحة".

والتراث العربي أوسع زمنا من التراث الإسلامي، فهو  
يضرِب بجذوره إلى تراث الحضارات القديمة في منطقة  
الشرق الأدنى، وإلى تراث العرب قبل الإسلام بقرون طويلة.  
ولكن التراث الإسلامي أعق وأغنى وأوسع جغرافيا من  
التراث العربي، فهو يضم إلى جانب تراث العرب تراث  
الشعوب الأخرى التي دخلت الإسلام كالفرس والهنود والمغول  
والمصريين والعراقيين وشعوب شمال أفريقيا إلخ. ويقدم  
محقق التراث الكبير للعلامة عبد السلام هارون في كتابه الذي  
يحمل هذا الاسم: مفهوم مستتيِرا للتراث العربي، يجعله رديفا

للتراث الإنساني، فهو "كل ما كتب باللغة العربية، وانتزع من روحها وتيارها فترا بصرف النظر عن جنس كاتبه، أو دينه، أو مذهبه".

وقد شغل التراث العربي الإسلامي مساحة واسعة من التاريخ الإنساني، متفاعلا معه أخذًا وعطاء خلال قرون الازدهار الحضاري العربي الخمسة، وما زالت هذه التأثيرات تطل علينا عبر الإبداع الأدبي والفكري حتى الآن.. ويمتد التراث العربي.. مثل غيره من تراث الشعوب الأخرى من الأسطورة إلى الحكاية والسيرة وباقى مكونات التراث الشعبي، ومن التراث الشعبي إلى التراث الخاص والمدون، وفي مقدمته المادة التاريخية والثقافية.

والعلاقة بين الدين والتاريخ والتراث علاقة قديمة متجددة حسب مقتضيات تطور المكان والزمان. ففي العصور القديمة كان تاريخ الأنبياء والرسول هو الوجه الآخر للتاريخ الإنساني، بينما تاريخ الملوك والحكام هو وجهه المادي، أو تاريخ العمران الاجتماعي حسب تعبير العلامة ابن خلدون، وعندما انفصل التاريخ كعلم عن الدين والتراث عاد ثانية للاهتمام بالدين والتراث من خلال مناهجه الحديثة، في دراسة تاريخ الأدباء، والتاريخ الثقافي للبشر، بينما اتجهت بعض العلوم الإنسانية التي نشأت وتطورت في القرنين الماضيين، كالأنثروبولوجيا، والفولكلور، واللسانيات، والنقد الأدبي، لقراءة التراث الإنساني قراءة جديدة من خلال مناهجها، لتغطي معرفة الإنسان بذاته، وتاريخه الوجداني، وبمحيطه

---

الاجتماعي، وجماعته الإنسانية. وانفرد الأدب، وخاصة في  
العصور الحديثة، بالنظر إلى التراث الديني والأدبي  
كمصدرين غنيين للإبداع الفني. فكان الحياة المعاصرة، وما  
يكتنفها من عقبات مادية وعذابات روحية، تعيد للإنسان صلته  
بالدين يستمد منه طاقة لمواجهة تحديات الواقع والعصر، التي  
لا تأبه كثيرا بمصائر الجماعات المستضعفة، والإنسان  
العادي، كما أعادت صلة هذا الإنسان بتراثه في مواجهة  
عوامل اقتلاعه من هويته، ليس لمجرد الاحتفاء السلبى بهذا  
التراث كحل هروبي من احباطات الواقع، ولكن للتفتيش في  
هذا التراث الغني، عن حلول خاصة به وبأمته، منطلقا من  
إيمان حقيقي بأنه يملك تراثا لو نفّض عنه تراكمات عصور  
التدهور والتحجر والجمود، لوجد فيه كنوزا عظيمة قادرة على  
إمداده بإجابات مبتكرة على أسئلة الواقع والعصر.





(٢)

القصص الدينية  
والموروث التاريخي

كان الكثير من القصص الديني معروفا عند العرب قبل الإسلام، فقد كان هذا القصص أحد مكونات التاريخ الشفاهي العربي، وكانت قصص عاد وثمود وفرعون تنتقل بينهم بالتواتر كما يقول الفخر الرازي، كما كان الشعر، وهو أصبح علم لدى العرب القدامى، كما وصفه عمر بن الخطاب. يحمل الكثير من الإشارات التاريخية والقصصية، وقد انتقل هذا القصص الديني السابق على الإسلام إلى العرب، طريق نصارى الشام والحبشة ويهود اليمن ونجران والمدينة، كما انتقل عبر بعض المتقنين من أبنائهم الذين عرفوا الكتاب، وبعض اللغات المجاورة كالعبرية والفارسية، والذين كانت نفوسهم تضيق بالعقائد الوثنية.

ولكن هذا القصص الديني لم يزدهر وينمو وينضج إلا في ظلال القرآن الكريم، رغم أن القرآن ليس كتاب قصص، وإن شغلت مساحة القصص الديني فيه ما يتجاوز ربع المصحف بقليل، وذلك بالمعنى الواسع لمفهوم القصص، مما يؤكد أن القرآن استخدم القصص كوسيلة من وسائل إبلاغ الدعوة، أو بعبارة أخرى قام بتوظيف القصص توظيفاً دينياً يتفق وغاياته السامية، شأنه في ذلك شأن سائر الكتب السماوية المقدسة، فامتلاً بالموروث القصصي الذائع عند العرب، بشروطه

الموضوعية والجمالية، على شكل وحدات سرديّة جزئية  
موزعة على عدة سور من سور القرآن الكريم، باستثناء قصة  
يوسف، التي جاءت بمبناها الحكائي كاملاً في سورة يوسف  
[د. محمد رجب النجار - التراث القصصي في الألب  
العربي].

ويشمل القصص الديني الذي أشار إليه القرآن الكريم أربعة  
أنواع من القصص: قصص الأنبياء، وتبدأ بقصة أبي البشر  
آدم وأمه حواء وخروجهما من الجنة، ثم أبي البشر الثاني  
نوح، وقصة الطوفان العظيم، ثم قصص النبيين العربيين، هود  
وصالح مع قومهما، ثم قصة أبي الأنبياء إبراهيم مع النمرود  
وقصة أبي العرب إسماعيل وفدائه، وحفر زمزم، وبناء  
الكنبة، وقصة لوط مع قومه ويعقوب مع أبنائه، وقصة يوسف  
مع أخوته وعلاقته بالمرأة العزيز وسجنه، والنبي شعيب ثم  
قصة موسى ومعجزة ميلاده، وخروجه بقومه من مصر، ثم  
دعوته، وصراعه مع فرعون، والته اليهودي، وقصة البقرة،  
وقصة فتنة داود مع أصحاب السبت، وسليمان وبلقيس، وأيوب  
وبلائه، ويونس والحوت، وزكريا ويحيى، ثم مريم وعيسى  
والمعجزات العيسوية.

ويلى قصص الأنبياء في القرآن الكريم، القصص المتعلقة  
بالشعوب السابقة على الإسلام والتي ترد للعبرة التاريخية  
المستهدفة منها، مثل: قصة أهل الكهف، قصة ذي القرنين،  
قصة يأجوج ومأجوج، قصة عزيز وأصحاب الجنة، قصة  
قارون وكنوزه، قصة قابيل وهابيل، وقصص سد مأرب،



وسبل الحرم، وأصحاب الرمز، وأصحاب الأخنود وأصحاب القيل إلى غير ذلك مما يرتبط أشد الارتباط بالثواب والعقاب السماويين، والجنة والنار، والموت والبعث، ويرتبط بهذا المجال التاريخي، الوقائع والأحداث التي حدثت للرسول صلى الله عليه وسلم نفسه مع بداية اضطهاد قريش له وتكذيب دعوته وحصلاره، وتحديات اليهود له، وقصص المناققين معه، ومرورا بقصة الإسراء والمعراج، وقصة الهجرة النبوية وما ارتبط بها من معجزات، وقصة الإفك، والحروب التي فرضت على النبي أو الغزوات التي قام بها، وانتهاء بفتح مكة وتنام النصر، وتعميحا على الحديث عن زوجات النبي، خاصة زينب بنت جحش، وغير ذلك من مواقف وأحداث، وما يرتبط بهذا كله من لمحات رسولية، ومواقف إنسانية، ومعجزات إلهية، وكثير منها يشكل معالم فاصلة في تاريخ البشرية.

والغالب على القصص الديني القرآني، هو قصص الأنبياء وتاريخ نضالهم مع قوى الإنكار والشر، وليس الهدف من هذه القصص هو السرد التاريخي، ولكن الهدف هو التأمل والعظة والمعزى الديني، لذلك جاءت صياغة هذا الموروث التاريخي في القرآن الكريم صياغة قصصية، في زمن لم يكن القصص فيه قد انفصل عن التاريخ، وكذلك جاء السرد بلاغيا فنيا.

والنوع الثالث من القصص القرآني، هو القصص الغيبي، القصص المتعلقة بعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الشياطين والسحرة، لذلك استوعبت كتب التفسير عند تعرضها لهذا النوع من القصص الموروث العربي القديم من الحكايات

والأساطير، كما استوعبت الموروث السامي، والذي عرف  
بـ"الإسرائيليات".

وهناك نوع رابع من القصص القرآني، هو الذي يسميه  
الدكتور النجار بالقصص الرمزي والتمثيلي، وهو القصص  
المتعلق بعالم الحيوان، أو الذي يروى على لسان الحيوان،  
كقصة الغراب الذي بعثه الله لابن آدم لكي يعلمه كيف يولدى  
سواء أخيه، وقصة الطير التي ذبحها إبراهيم الخليل ووزع  
أجزاءها على قمم الجبال ثم استدعاها فجاءت تسعى، وقصة  
بقرة بنى إسرائيل التي أمر موسى بذبحها لكشف جريمة القتل،  
وقصة الذئب الذي اتهم زورا بأكل يوسف، وهدد سليمان،  
ودابة الأرض التي كشفت لنا أن الجن لا يعلم الغيب، وحمار  
عزير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه.. إلخ.

وثمة سور قرآنية تحمل أسماء حيوانات مثل: النحل، النمل،  
البقرة، العنكبوت، الليل، ورغم وفرة المادة القصصية في  
القرآن الكريم، إلا أنها وردت كما اسلفنا كإشارات مجملّة،  
أو لمحات سرديّة. ولم تتحول إلى قصص ديني كامل إلا على  
يد المفسرين ورواة الأخبار والمؤرخين القدامى، لتصبح  
قصصا دينيا بشريا منفصلا عن القصص القرآني وإن استلهمه  
في البداية ليبني عليه إداعه القصصى.



## العرب وديانات ما قبل الإسلام

كانت الكعبة هي أقدس ما في بلاد العرب قبل الإسلام، وكان بعض العرب قد عرف الديانتين الكبيرين: اليهودية والمسيحية، التي كانوا يسمون أتباعها بـ "أهل الكتاب" .. وكانت قريش تعرف "الله" الذي يعبد اليهود والنصارى: "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله" ولكنهم استمروا في عبادة آلهة أخرى، مثلما كان العبرانيون القدماء يفعلون .. كانوا يتوجهون إلى أصنامهم الكبرى في فترات الرخاء والازدهار، حتى إذا ما حلت بهم أزمة خائفة توجهوا بفطرتهم إلى الله القادر وحده على إزالة الأخطار عنهم، ويضرب القرآن الكريم مثلاً بمن كانوا في الفلك وخشوا الغرق، فدعوا الله حتى إذا نجاهم نسوه وتوجهوا إلى آلهتهم.

ولكن بعض متلقى العرب قبل الإسلام مباشرة كان بهم  
رغبة أكيدة في تجاوز ذلك الموقف المزدوج في عبادة الله  
الذى يعبد النصارى واليهود من العرب الجنوبيين، والعرب  
الملحقين بالقوتين المهيمنتين الكبيرين فى ذلك العصر  
ونعنى الفرس والرومان، وبين عبادتهم آلهتهم القديمة: اللات،  
والعزى، ومناء، وهبل.. وكان بعض النصارى واليهود  
يقومون بالحج إلى البيت الحرام مع باقى قومهم من الوثنيين..  
لقد أراد هذا البعض المستدير من العرب القدامى ديناً خاصاً  
بهم، لا يرتبط باليهودية التى ترعاها فارس، ولا بالمسيحية  
التي ترعاها روما، والتي تسيطر على مصائر الشعوب  
الأخرى عن طريقهما.. ويخبرنا المؤرخ الفلسطينى المسيحى  
"سوزوميتوس" الذى عاش فى القرن الخامس الميلادى، أن  
بعض العرب كانوا يحاولون التعبد حسب دين الخليل إبراهيم  
الذى اكتشفوه "وإن شئنا الدقة العلمية، فإن إبراهيم لم يكن  
يهودياً ولا مسيحياً، إذ كان يعيش فى وقت سابق على للتوراة  
التي أتى بها موسى إلى بنى إسرائيل".

كما تورد سيرة ابن هشام قصة الرجال القرشيين الأربعة  
قبل الإسلام الذين خرجوا يبحثون عن دين صحيح لا يقوم  
على عبادة الأصنام، وعقدوا فيما بينهم حلقاً مرياً، واتهموا  
بأبى قريش بأنهم اقتدوا دين أبهم إبراهيم، وبأن الحجر الذى  
يطوفون حوله، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع،  
وقالوا: "قلتهنوا لكم عن دين، فليس لكم والله من دين تدينون  
به، ومن ثم جعلوا يضربون فى الأرض سعياً وراء الحنيفية

دين إبراهيم عليه السلام.

وكان الحنفاء الثلاثة هم: عبيد الله بن جحش ابن عم النبي، وقد اعتنق الإسلام ثم تحول إلى النصرانية، وكان الثاني ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوجة النبي الأولى، والثالث هو عثمان بن الحويرث، وكان من الشخصيات البارزة في مكة فترة شباب النبي. وقد اعتنق النصرانية، وحاول إقناع أهل مكة بأن يجعلوه ملكا عليهم، ووعدهم بتحقيق شروط تجارية أفضل لهم مع البيزنطيين، الذين كانوا يطمحون في تحويل مكة لأهميتها التجارية إلى دولة تابعة لهم، ورفض المكيون العرض فقد كانوا يكرهون أن يتخذوا ملكا عليهم. أما رابع هذه المجموعة فهو زيد بن عمرو، الذي لم يكتف بالخروج على عبادة آلهة قريش، بل راح ينتقد هذه الآلهة علنا، وكان أخوه غير الشقيق الخطاب بن نفيل (والد أمير المؤمنين عمر) من المخلصين لعبادة الأوثان، ومن أشد حراس التراث القديم قوة وحسما، وكان ابنه عمر يشاركه هذا الموقف، فهم يرون أن عبادة الكعبة عاملا مهما في وحدة قريش، لذلك ساء الخطاب ما يقوله ويفعله أخوه زيد، وأغضبه ارتداده عن دين آبائه، فطرده من مكة، "وقيل أنه شكل فريقا من شباب المتحمسين لعبادة الأوثان، وجعلهم رقباء على التلال المحيطة بمكة حيث كان زيد يختفي، ليمنعوه من دخول الكعبة، وهكذا ترك زيد الحجاز ورحل إلى البلاد المتحضرة سعيا وراء الدين الصحيح، وبلغ الموصل في العراق، ثم ارتحل إلى سوريا، وهو يسأل كل راهب أو حاخام يصادفه عن الدين النقي الذي جاء به إبراهيم وأخيرا قابل راهبا أخبره

أن الوقت قد حان لظهور نبي في مكة يبشر بالدين الذي يبحث عنه. وهكذا عاد زيد أندراجة، ولكنه تعرض لحادث اعتداء عند الحدود الجنوبية لسوريا، ولقط أنفاسه الأخيرة قبل أن يقدر له أن يقابل محمدا.

ولكن ابنه سعيدا أصبح من أخلص صحابة النبي، وكان زيد قبل أن يرغمه أخوه على ترك مكة، يقف إلى جوار الكعبة ثم يصيح في قريش أثناء طوافها حولها. "يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ليس فيكم من يتبع دين إبراهيم سوى" ثم يضيف داعيا ربه: "إلهي ! لو أنني أعرف كيف تريدني أن أعبدك لعبدتك العبادة التي ترضاها، ولكني أجهلها".

لم يعد النظام القبلي والوثنية القديمة المرتبطان بحياة الترحل السابقة صالحين لحياة الاستقرار وشبه التحضر اللذين عرفتهما مكة، منذ أن استقرت قريش فيها في أواخر القرن الخامس الميلادي، كان بعض العرب قد بدأوا التعامل التجاري مع الدول المتحضرة المجاورة، ولعل قصة النضر بن الحارث ابن خالة النبي، والذي كاد للنبي والمسلمين الأوائل كيدا

شديدا، جعله يستحق القتل، بعد أسره في معركة بدر، لعل هذه القصة تكشف عن هذا اللون من الثقافة الذي عرفه بعض وجوه مكة قبل الإسلام، فقد كان النضر يتقصصه وما يحفظه من أشعار الأمم الأخرى، وما يعرفه من موسيقاهم يسلب أبواب أهل مكة.. وكان يعد نفسه نظيرا ونادا للنبي عليه الصلاة والسلام، كان يقول: "إذا كان محمد يحدثكم بأحاديث عاد وثمود، فأنا أحدثكم بأحاديث رستم واسفنديار، وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فلهما أحدثكم أحسن من حديثه"

---

وهو الذى نزلت فيه الآيات القرآنية الكريمة \*ومن الناس من  
يشترى لهو الحديث، ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها  
هزوا أولئك لهم عذاب مهين.. وإذا تتلى عليه آياتنا ولى  
مستكبرا، كان لم يسمعها، كان فى أنتيه وقرا فيشره بعذاب  
النجم\*.



## أنبياء العرب القدامى

أنكر يهود المدينة نبوة هود في قوم عاد، ونبوة صالح في قوم ثمود، وعاد وثمود من القبائل العربية القديمة، لأن التوراة لم تورد اسمى هود وصالح ولا قومهما، وقد صار جنل بشأنهما بين الرسول عليه السلام وبين اليهود. ويذكر ابن الأثير في تاريخه أن شهرة النبيين: هود وصالح عند العرب قبل الإسلام كشهرة إبراهيم الخليل عليه السلام، وإن إنكار اليهود لهما ولقومهما ليس بأعجب من إنكارهم نبوة إبراهيم الخليل ونبوة المسيح عليهما السلام. ويقرر ابن خلدون عدم ذكر عاد وثمود في التوراة، بأن الأسم التي ورد ذكرها في التوراة هي الأمم التي عاشت في الفترة ما بين آدم وموسى عليهما السلام.

وتورد أخبار العرب القديمة اسم نبي عربي لم يرد ذكره في القرآن، واختلفت بشأله الآراء، وهو "خالد بن سنان العيسى"



الذى يقال أنه عاش في الفترة الزمنية الفاصلة بين فتح الإسكندر لإيران وبين قيام الدولة الساسانية، بينما تنسبه رواية أخرى إلى العصر السابق للعصر النبوي مباشرة، ويروى أن معجزته ارتبطت بظهور نار بأرض العرب افتتن بها الناس، وكانوا يعبدها كالمجوس، فأخذ خالد عصاه، ودخل النار حتى توسطها، ففرقها بعصاه، وهو يتلو سجعا شبيها بسجع الكهان: "بدا بدأ، كل هدى مؤدى، لأدخلها وهي تطفى، ولأخرج منها وثيابي تندى" وهي معجزة تذكر بمعجزة إبراهيم الخليل الذي جعل الله النار من حوله بردا وسلاما.. ويورد ابن الأثير في تاريخه أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف خالد بن سنان هذا بأنه "نبي ضيعه قومه" وإن ابنة خالد أنكرت النبي فأمنت به، ويشير المؤرخون القدامى إلى نبي آخر من العرب قبل الإسلام، هو "حنظلة بن صفوان" الذي أرسله الله لأصحاب الرس "البئر" بعد خالد بن سنان بمائة سنة، ويقول عنه ابن كثير أنه كان قبل موسى، كما يشير إلى العثور على قبره قرب مدينة تستر عند فتحها، ويعلق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على قصة نبوة خالد بن سنان العيسى ومعجزته بأنها تعبير عن كراهية العرب للمجوسية ونيران الفرس، مما يمكن اعتباره تعبيراً عن الروح القومية في مواجهة التهديد الفارسي "ولا بأس في أن يكون خالد بن سنان هذا من كهان العرب، أن لم يكن من متبنيهم قبيل العصر النبوي، وذلك أن الرواية القصصية تضيف إلى ما سبق، أنه عندما حضرته الوفاة طلب من أهله أن يلبشوا قبره،

إذا ما ضرب القبر بعير أبتز بحافره، حتى يخبرهم بما هو كائن، ولكن قومه لم يفعلوا ذلك خوفا من أن تسبهم العرب'. وقد اهتم المؤرخون العرب القدامى بأساطير وأخبار الأمم المجاورة لهم، والتي عايشوها وعرفوا ثقافتها بعد دخولها في إطار الدولة العربية الإسلامية، وتعمس رؤية هؤلاء المؤرخين القدامى، كابن الأثير وابن خلدون وابن قتيبة، وإخوان الصفا في رسائلهم، واليعقوبي، تعمس رؤية هؤلاء لتراث الأمم الأخرى، سماحة فكرية عالية ورغبة في المعرفة والوصول إلى الحقيقة دون تعصب أو انغلاق.. فقد اهتم هؤلاء المؤرخون بما يقوله الفرس عن أنبيائهم ومعتقداتهم، كما اهتموا بحكماء الروم (فلاسفة اليونان) مثل هرمس "المتلث بالنعمة" الذي يسمى في التراث الإسلامي بالنبي إدريس. أما ما يقابل النبي إدريس عند الفرس فهو "بيوراسب" الذي ظهر على عهد الملك "ظمهورث بن يونجهان" بمعنى "خير أهل الأرض" وتحدث الأسطورة عن علاقة النبي بالملك، والتي تشبه علاقة أنبياء بني إسرائيل بملوكهم كمرشدين وناصحين، و"بيوراسب" هذا هو نبي الصابئة الذي تنسب إليه الأسطورة أنه كان يستخدم السحر الذي تعلمه من كلام آدم عليه السلام، وقد استفاد الملك من هذا السحر في السيطرة على إيليس، فكان يمتطيه ويطوف عليه أقاليم الأرض، كما ينسب إلى أخى الملك المسمى بـ "جشيد" بمعنى شجاع القمر، وقد لقب به لجماله، أنه كان يستعد الإنس والجن ويزل الشياطين ويسخرهم في أعمال البناء والتشييد. فهو من هذا الوجه شبه

بسلامان الحكيم.. وعن طريق مذهب الصابئة هذا ظهرت عبادة الأصنام "لأن أصل مذهبهم" كان عبادة الملائكة لتقربهم إلى الله زلفى "فإنهم اعترفوا بصانع العالم، وأنه حكيم قادر مقدس، إلا أنهم قالوا: الواجب علينا معرفة المعجز عن الوصول إلى معرفة جلالة، وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة إليه وهم الروحانيون (الملائكة) وحيث لم يمانوا الروحانيين تقربوا إليهم بالهيكل، وهى الكواكب السبعة السيارة، ولما كانت الكواكب تغيب نهارا، ذهبت فئة من الصابئين إلى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها إلى الهيكل، والهيكل إلى الروحانيين، والروحانيين إلى صانع العالم، فهذا كان أصل وضع الأصنام أولا" (الكامل لابن الأثير نقلًا عن د. سعد زغلول عبد الحميد) ولعل ذلك سر سماحة نظرة الإسلام إلى الصابئة.

ويربط المؤرخون القدامى بين جحود البشر وكفرهم، وانصرافهم إلى اللزوع دون الأصول ونسيانهم التوحيد، وبين رسالة النبي نوح كأول نبي بعث بالإنذار والدعوة للتوحيد، ومناشدة قومه في العودة إلى الحق، والامتثال لأوامر الله.. لكنه كان مكتوبا على الإنسانية الخاطئة أن تنتهى، فلا يبقى منها إلا أهل التوبة والتوحيد "هكذا كان الطوفان فاصلا بين بنى آدم (بنى البشرية الأول) وبنى نوح (بنى الخليقة الثانية) وإلى أبناء نوح الثلاثة وهم: سام وحام وشيث، الذين نجوا معه فى السفينة، مازال علماء النسب يقسمون البشر، إلى: ساميين وحاميين وشيثيين (أى هند وأوروبيين).. وكأنه لم ينج من

الطوفان إلا أسرة نوح الصغيرة. وبناء على ذلك تبدأ بعد الطوفان دورة جديدة للإنسانية، كأنها بداية للمصور التاريخية. ولقد نظر الفرس والهند إلى حادثة الفيضان الكبير على أنها كارثة طبيعية محلية، ربما حلت بأرض بابل فقط، وإلا فلو كانت عامة شاملة لكافة الأرض المعمورة لحرف بها أهل بلادهم، ولسجلها مؤرخوهم (الطبري وابن الأثير في المصدر السابق د. سعد زغلول عبد الحميد).



وقد كانت نبوة النبي هود في قبائل عاد التي كان موطنها اليمن وحضرموت، ونبوة النبي صالح في قبائل ثمود التي كانت تعيش في شمال الحجاز، نبوتين عربيتين خالصتين، جاءت قصتهما خارج سياق نبوات أسفار العهد القديم (التوراة). وتعكس قصة النبيين العربيين "طبيعة الحياة العربية على مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية، كما أنها تربط بين معتقدات العرب المحلية في صحراواتهم وبواديهم، وبين تبجيلهم للحرم المكي الذي يمثل عامل الربط والتوحيد بين كل ديانات العرب قديما. وهي في النهاية تجعل من الكوارث الطبيعية عقابا حتميا من الله ينزله بالعصاة والفجار من الكافرين".

يخبرنا القرآن الكريم أن قبائل عاد، عصوا نبيهم هود، واستمروا في ضلالهم وعبادتهم لأصنامهم، وفي عتوهم في

الأرض "وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من  
أشد منا قوة؟" ويذكر عبيد بن شريه في كتاب "الملوك وأخبار  
الماضين" أن أصنام قبائل عاد هي: صداة، ونعاء، وصمود،  
واتهم بعد عصياتهم أنبيهم هود ورفضهم لما دعاهم إليه من  
ترك الأصنام وعبادة الله أنزل عليهم القحط الذي استمر ثلاث  
سنوات، سموا السنة الأولى بـ: حجرة، والثانية: كحلا،  
والثالثة: كحلا، وأنه عندما ذهب وفد منهم إلى مكة يستسقى  
ويطلب المغفرة، نسوا ما جاءوا من أجله وانصرفوا إلى  
طعامهم وملذاتهم ولهوهم، فاستحقوا العذاب، إلا من آمن منهم،  
فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا عاتية، كأمثال الجبال لها لجم  
بأيدى رجال، كل في وجوههم شهب النار، حسب وصف  
ناحتهم "مهد" التي توصف بأنها أول ناتجة عربية، والتي  
يقول عنها الشاعر:

رأت ما رأت "مهد" فقيل لها .. ماذا ترى؟

فألت: أنظر العجا!

أرى رياحا كأمثال الجبال لها.. لجم بأيدى رجل تشبه  
الشهب

وعصفت جبال الريح بقبائل عاد المتجبرة طوال "سبع ليل  
وثمانية أيام حسوما" ولم تتركهم إلا وقد صاروا كأعجاز نخل  
خاوية.

وفي أحد أعياد قبائل ثمود يطلبون من نبيهم صالح أن يأتي  
لهم بمعجزة يعتبرون بها، ويحددون نوع المعجزة بما يتناسب  
مع عقليتهم البدوية، فهم يطلبون منه أن يستخرج لهم من

الصخر "ثاقفة حمراء شعراء وبراء مبهرجة، لها ضجيج وعجيج ورغاء شديد، تكور لبنا سائغا" ويخرج لهم النبي صالح الناقة حسب مواصفاتهم، ولكنهم يختلفون بشأنها، ثم يعفرونها ويقتسمون لحمها، ويرمون صغيرها، فيدعو صالح عليهم، فينزل الله بهم العذاب استجابة لدعائه، وقد استمر عذابهم أربعة أيام "ففى اليوم الأول اصفرت وجوههم، ثم إنهما احمرت فى اليوم الثانى قبل أن تسود فى اليوم الثالث، وأخيرا اتتهم الصاعقة فى اليوم الرابع فقضت عليهم" ويترك النبي صالح أرض قومه إلى الشام، ويقيم زمنا فى فلسطين ثم ينتقل منها إلى مكة، فيقيم فى البلد الحرام بعيد الله إلى أن يموت وهو فى الثامنة والخمسين من عمره، بعد أن استمرت دعوته فى قومه عشرين عاما.

"وبذلك ارتبطت دعوة هود وصالح بالعروبية من جهة، ويتفندس مكة من جهة أخرى، وذلك قبل أن يأتى إبراهيم الخليل (أبو الأنبياء) حوالى سنة (٢٠٠٠ قبل الميلاد) ليقوم قواعد البيت، ويدعو الناس إلى الحج، فيتم الربط بين الإبراهيمية الحنيفية وبين المحمدية الإسلامية. وهى بعد فكرة فى ضمير القدرة" ويمتد تراث النبوة بين العرب عن طريق النبي إسماعيل أبى العرب المستعربة من جهة وصهر العرب العاربة عن طريق زوجته الجرشية من جهة ثانية، إضافة إلى أنه ابن لهاجر المصرية من جهة ثالثة: الأمر الذى يجعلهم أحوال العرب. وهى أمور يؤكد عليها التراث الإسلامى فى صياغته لرسالة التوحيد التى تربط بين الحنيفية الإبراهيمية

وبين المسيحية الوسيطة، وبين الدعوة المحمدية.. وقد اهتم المؤرخون المسلمون القدامى ببيان أوجه التشبه بين الدعوة الإبراهيمية والدعوة الإسلامية. فكلاهما ضد عبادة الأصنام، وكلاهما مرتبطة بفريضة الحج، "وتطلبت مناسك الحج أن يمتحن إبراهيم بعشر خصال، هي المعمول بها في الإسلام، لتطهير البدن، خمسة منها في الرأس، وخمسة في الجسد، والخمسة التي في الرأس هي: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، وفرق الشعر، والخمسة التي في الجسد هي: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونف الأبط، وغسل أثر الغائط".

ويمتد التشابه بين الخليل إبراهيم ونبي الإسلام إلى نذر عبد المطلب لأبي النبي عبد الله ﷺ، مثلما نذر الخليل ابنه إسماعيل، ولذلك يسمى النبي بأبن الذبيحين (عبد الله وإسماعيل). ويعتبر العلامة ابن خلدون الخليل إبراهيم أبا ثالثا للبشرية بعد آدم ونوح، باعتباره أبا للعرب جميعا، وحيث جعل الله في ذريته النبوة والكتاب إلى آخر الدهر.

ويبدو الفارق بين الخليل إبراهيم والنبي محمد عليهما السلام، والذي حرص القرآن على تأكيده، هو اعتماد نبوة إبراهيم على المعجزة الخارقة المتمثلة في تحول النار من حوله إلى برد وسلام، إلى جانب اعتماد نبوته على الوحي الإلهي والإلهام الصادق، بينما اعتمدت النبوة المحمدية على الوحي الإلهي بالقرآن معجزته الكبرى، وإن كان التراث الشعبي الإسلامي قد أفاض في إضافة العديد من المعجزات

---

والخوارق إلى السيرة النبوية كما ارتفع بعض المتصوفة  
بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم إلى مستوى الظواهر  
الكونية، والمثل الأولى للموجودات، وأن اسمه موجود في كل  
شيء في الجنة، من القصور إلى نحر الحور، إلى ورق أجام  
الجنة، ولولاء لما خلق الله سماء ولا أرضاً، ولا طولاً ولا  
عرضاً، ولولاء ما كان لا ملك ولا فلك.. كلا ولا بان تحريم  
وتحليل.





---

## عاد وثمود

### فى الأسطورة والتاريخ

تمتزج الأسطورة بالتاريخ فيما يتصل بأقوام العرب البائدة، وفى مقدماتها قوما عاد وثمود اللذان وردت قصتهما فى القرآن الكريم، كما أشرنا سابقاً، وكان ورودهما فى القرآن، كغيرهما من القصص، بهدف للعظة والعبرة بأحوال الأمم السابقة، وليس بهدف التوثيق التاريخى، وقد شكك بعض المؤرخين فى حقيقة وجود الأقوام العربية البائدة: عاد، ثمود، طسم، جدبس، أميم، جاسم، عليل، عبد ضخم، والعمالق، وجرهم الأولى. ونسبوا ما قيل عن هذه الأقوام من قصص إلى خيال الرواة والأخبارين، لكن الأبحاث الأثرية واللغوية الحديثة كشفت كثيراً من المعلومات والحقائق المتعلقة بتلك الأقوام، وإن ظلت الأساطير ممزجة بتلك الحقائق، عن عاد وثمود وقصتهما مع النبيين هود وصالح، وقد كانت قصة عاد شائعة بين عرب ما

قبل الإسلام، الذين كانوا يعتقدون أنهم قوم موغلون في القدم، لذلك كانوا يصفون ما يردن المبالغة في وصفه بالقدم، بأنه: عادى. وفي لسان العرب: العادى هو الشيء القديم، أى أن الكلمة صفة وليست اسم علم. ويختلف الإخباريون القدامى، كمعادتهم، في تفسير اسم "عاد" فهو عند البعض اسم لأبى القبيلة الذين يصلون نسبة لإرم بن سام بن نوح، ويعتمدون على ذلك في تفسير الآية القرآنية "ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد" ويقول إخباريون آخرون: أن عاد اسم لأم تلك القبيلة، أو اسم لبلدتهم، والعرب قد عرفوا كشعوب كثيرة الانتساب للأم في مرحلة ما قبل المجتمع الطبقي.

ويرى بعض المستشرقين المعتمدين على التفسيرات التوراتية للتاريخ أن هذا الاسم المؤنث يشير إلى اسم "عاده" زوجة لامك حفيد سام بن نوح. أو أم يابل، الذى ورد اسمه فى سفر التكوين من العهد القديم، كوالد لرعاة المواشى سكان الخيام. ويحددون موطن قوم عاد فى الأرض الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب. أما الذين يرون أن بلدهم هو "إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلاً فى البلاد" فيختلفون أيضاً فى تحديد موقعها: - فهى فى أبين بين عدن وحضرموت، أو هى دمشق، أو الإسكندرية، كما يرى السعودى فى كتابه "مروج الذهب" وإرم هو من أسماء دمشق بالعبرانية. ويرى جورجى زيدان فى كتابه "العرب قبل الإسلام" أن اسم تلك القبيلة هو "عاد إرم" مستمداً بذلك على التوراة والكتابات اليونانية.

لما مساكن قوم عاد، والثى أشار إليها القرآن الكريم

بالأحقاف "وأذكر أبا عاد إذا أنذر قومه بالأحقاف وهي الرمال الممتدة بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر. وربما كان التحديد الجغرافي غير بعيد، فقد ذكر كثير من الباحثين المنقبين في الجزيرة العربية أن الربع الخالي يشتمل في طيات رماله على آثار مدينة أو حضارة باتدة، كانت عظيمة الازدهار، وأنهم وجدوا بعض الشواهد على ذلك ( ) ويفترن اسم عاد يشمود في كثير من الآيات القرآنية، وقد ذكر الجغرافي الإغريقي بطليموس قوما سماهم "بهولاء القوم، أنهم قوم عاد، بل ذلك هو الراجح، ويؤيده ما سبق أن ذكرنا من إقتران عاد وثمود في كثير من النصوص القرآنية، مما يدل على تجاورهما وتقاربهما. كما أن بطليموس ذكر موضعا يقال له "إرماد" الذي فسره العالمان "مودل ومورس" بأنه هو "إرم" أو "إرم ذات العماد" وهو يقع على مسافة ٢٥ ميلا شرقي العقبة قرب الأردن.. وقد أظهرت الحفريات التي قام بها عالم الآثار هورسفيل عام ١٩٣٢ في موضع جبل "إرم" صححة هذا الرأي، إذ ورد في الكتابات النبطية في خرائب معبد اكتشف على جبل "إرم" أن اسم هذا الموضع هو "إرم" الوارد ذكره في القرآن الكريم. ومن الطريف أن الأخباريين والرواة القدامى، قد وضعوا شعرا على لسان ابن هود الذي أسموه "قحطان" قاله بعد أن هلك قومه وهم على الكفر، يقول الشعر:

إني رأيت أبي هود يورقه  
حزن دخيل وبليال وتسهاد

لا يحزنك إن خصيت بداهية  
 عاد بن عوص فعاد بنس ما عادوا  
 عاد، عصوا ربهم واستكبروا  
 وعتوا عما نهوا عنه لا سادوا ولا قادوا  
 قاموا يردون عنهم من مفااتهم  
 ربحا بها أهلكوا أيمن ما بادوا  
 والشعر واضح الوضع والاشتمال، ولكن الرواة كانوا  
 يضعون مثل هذا الشعر على لسان شخصيات التاريخ القديم،  
 من باب التزيين الأدبي الذي يؤكد المعنى، غير ملتفتين إلى  
 منطق هذا الشعر الموضوع، إلى درجة أنهم وضعوا شعرا  
 عربيا على لسان آدم أبي البشر يرثى به ابنه الذي قتله أخوه!



كان العرب قبل الإسلام مباشرة يعرفون عن ثمود أكثر مما  
 يعرفون عن عاد، وقد نسب بعض علماء الأنساب قبيلة ثقف  
 التي كانت تعيش في الطائف إلى ثمود، كما نسب آخرون  
 قبائل الهلالية إليهم.. وقد ورد ذكر ثمود في القرآن الكريم  
 مقرنا بعاد، كما أشرنا من قبل، وكما جاء في سورة العنكبوت  
 "وعاد وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم" كما يأتي ذكر قوم  
 ثمود بمفردهم "وثمود الذين جابوا الصخر بالواد" أي قطعوا  
 صخر جبال وادى القرى واتخذوا فيه بيوتا. ويقول المؤرخ  
 والجغرافي المسعودي أن مساكن ثمود كانت بين الشام

والحجاز إلى ساحل البحر الأحمر، وأن ديارهم كانت بقج  
الناقة، وهو مكان قريب من الحجر، وأن بقاياهم كانت  
موجودة في طريق الحج بالقرب من وادي القرى.  
وقد ورد ذكر ثمود في المصادر الإغريقية وفي الحفريات  
الآشورية، كما حددت مساكنهم في المنطقة الواقعة شمال  
غربي اليمن، وقد عثر في اليمن على نقوش ثمودية مما يؤكد  
صلة الثموديين بجنوب الجزيرة، ووجدت نصوص ثمودية  
أيضا في مناطق حائل بنجد وفي أرض تبوك وتيماء ومدائن  
صالح، والسلاسل الجبلية بين هذه المنطقة وبين الحجاز  
والطائف، وفي شبه جزيرة سيناء، وفي الصفا شرق دمشق،  
وفي مصر ( ) وقد أدرك قوم ثمود أيام المسيح، وعاشوا بعد  
الميلاد، وكثرتوا يقطنون تلك الأيام أعالي الحجاز في دومة  
الجنديل والحجر، وفي غربي واحة تيماء في المنطقة المهمة  
التي يمر بها طريق اليمن الحجاز الشام مصر  
العراق. وقد تمكن (لانسكتر هاردنك) محافظ مديرية الآثار  
العتيقة بالمملكة الأردنية الهاشمية من تصوير ما يزيد على  
خمسمائة كتابة ثمودية أرسلها إلى المستشرق المعروف  
(اليتمان) يعود بعضها إلى ما قبل الميلاد، ويعود قسم منها إلى  
ما بعد الميلاد ( ) ومن المعروف عند العرب أن الثموديين  
كانوا أيضا من عبدة الأوثان، كفروا بالله وحاتوا عن أمره،  
فأرسل الله إليهم النبي صالح يعظهم وينذرهم، ولكنهم لم  
يذعنوا لأمر الله على لسان نبيه صالح، فأرسل الله عليهم  
الصاعقة بظلمهم، فأصبحوا من ديارهم جاثمين. ويرى

---

المستشرق (براي) أن ثمودا أصيبوا بكارثة عظيمة هي عبارة عن ثوران براكين وهزات أرضية، لأن المناطق التي كانوا يسكنونها من مناطق الحرار: أي الأرض السوداء، كما أن عبارتي: رجفة، وصيحة، الوارد ذكرهما في القرآن الكريم تؤيدان ذلك\*.

[دراسات في العصر الجاهلي. تأليف أحمد أبو الفضل \_  
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية].



## قريش والبيت الحرام

كانت الكعبة، أهم الأماكن المقدسة عند العرب قبل الإسلام، إذ كانت الرمز الأشمل لحياتهم الروحية، وقبل البعثة المحمدية مباشرة كانت قد خصصت للإله الوثنى (هيل)، الذى جلبه العرب من مملكة الأنباط التى كانت قائمة مكان الأردن حاليا. ولكن ارتباط العرب بالكعبة والمكانة الرفيعة التى كانت تحتلها فى وجدانهم تشير إلى أنه كان، فيما يبدو، البيت الذى بنى فى أول الأمر لله، وهو الرب الأعلى للعرب.. وكانت حول الكعبة منطقة دائرية كان الحجاج يقومون فيها بشعيرة الطواف، أى أن يطوفوا سبع مرات حول الكعبة فى اتجاه حركة الشمس، وكان حول الكعبة كذلك ٣٦٠ صنمًا، أو تماثيل للأرباب، وربما كانت رموزا طوطمية لشتى القبائل التى كانت تحج إلى البيت فى الشهر المحدد لذلك.. وكانت المنطقة المحيطة بمكة

(وهي نصف دائرة قطرها عشرون ميلا ومركزها الكعبة)  
أرضاً حراماً، أى أنها كانت حرماً لا يسمح فيها بارتكاب  
أعمال العنف أو القتال.

وقد حفظ لنا كتاب "الأصنام" للكلبي، وكتاب "رسالة الغفران"  
لأبي العلاء المعري بعض الأدعية الدينية التي كانت ترددها  
القبائل العربية في الكعبة أمام الهنأ الخاصة قبل الإسلام،  
وكان لكل قبيلة "تهليلتها" الخاصة، التي تأخذ شكل النظم  
الشعري البسيط والأقرب إلى الأشعار الفلكلورية. كما تشير  
سيرة عنترة إلى العديد من طقوس الجاهلية الدينية حول الكعبة  
والهنأ الوثنية.. وترى الباحثة البريطانية كارين ارمسترونج  
في كتابها "سيرة النبي محمد" أن البيت الحرام كان يتمتع  
بقداسة مشتركة بين أبناء الجنس السامي (شعوب منطقة  
الشرق الأدنى قديماً) وأن الدين السومري القديم هو الذي  
نبعت منه فكرة الدائرة، والأركان الأربعة، التي تمثل أركان  
الأرض الأربعة، والرموز المقامة حول الكعبة وعددها ٣٦٠،  
تشير إلى عدد أيام السنة السومرية المكونة من ٣٦٠ يوماً،  
إلى جانب خمسة أيام مقدسة يقضيها الناس "خارج الزمن"  
للقيام بشعائر خاصة تربط ما بين الأرض والسماء. ومن  
المحتمل أن تكون شعيرة الحج تمثيلاً لتلك الأيام الخمسة،  
فالحج يؤدي مرة واحدة في العام، ويشارك فيه العرب من  
شنى أنحاء الجزيرة. وشعائره تبدأ من الكعبة ثم بعد ذلك  
المزارات المقدسة خارجها، وفي نظر بعض العلماء أن تلك  
الشعائر المختلفة، قد يكون القصد منها تمثيل تعصف الشمس



المحتضرة (كان الحج في البداية يتم في موسم الخريف) استدارا لأمطار الشتاء، إذ يندفع الحجاج جميعا إلى قاع وادي المزدلفة، حيث يسكن إله الرعد، ثم يسهرون طوال الليل على السهل المحيط بجبل عرفات، الذي كان يبعد عن مكة بنحو ستة عشر ميلا، ثم يرجمون بالحصى الأعمدة الثلاثة المقدسة في "منى" وأخيرا ينحرون ذبيحة يقدمونها لضحية أو قربانا. ولا يفهم أحد اليوم حقا ما كانت تلك الشعائر تعنيه آنذاك، والأرجح أن العرب أنفسهم كانوا قد نسوا، في عصر النبي، الدلالة الأصلية لها، ولكنهم ظلوا على ارتباطهم الوثيق والعميق بالكعبة وغيرها من المزارات المقدسة في بلاد العرب، ولم يتوقفوا بل استمروا في أداء الشعائر الخاصة بها في تقان وإخلاص.

كان موسم الحج يعنى بالنسبة للعربي، إلى جانب الالتزام الديني، ضرورة نفسية وإبداعية في الخروج عن الرتابة المضجرة، والكفاح المرير من أجل الحياة، والصراع الضارى الذى تحكمه التقاليد القبلية، ففي أيام الحج لا قتال ولا اعتداء، كما كان لأيام الحج جانبها الاقتصادى التجارى، وكانت مكة من أسواق العرب المهمة السنوية، وكان الحرم نفسه على الأرجح، يمثل العالم، أى الأرض بأركانها الأربعة المنبثقة من مركز معين، ويبدو أن الدائرة من النماذج الفطرية القديمة، التى نجدها فى جميع الثقافات تقريبا رمزا للخلود، وللعالم وللنفس. وهى، تمثل، مكانيا وزمانيا، كلا كاملا، ومن ثم فالسير فى محيط الدائرة أو الطواف حولها (وهو من

الممارسات الدينية المشتركة بين أديان كثيرة) يعنى أنك دائما ما ترجع إلى النقطة التي انطلقت منها، إنك تكتشف أن النهاية هي البداية ( ) ومعظم الأماكن المقدسة، في شتى الثقافات التقليدية، يرى الناس أنها تقع في مركز العالم، وأنها كانت أولى الأماكن التي خلقها الآلهة. وكان الحاج يرى أنها قد اكتسبت بهاء البدايات وروائها وكان يحس أنه يقترب، بصورة ما، من مركز القوة في الوجود.

لقد اشتهرت قريش بأنشطتها التجارية والدينية قبل الإسلام، كما اشتهرت بقوتها الأخلاقية وفضائلها التي كان أبرزها فضيلة "الحلم" وهي الفضيلة التي مكنتها من أن تصبح أعظم قوى في بلاد العرب في القرن السادس الميلادي، كما مكنتها من مواقف الحياد في الصراع الدائر بين بيزنطة وفارس (القوتان الأعظم آنذاك).. فهي لم تكن تريد لبلادها مصيرا كمصير اليمن التي أصبحت ولاية حبشية.. وقد أحبط انسحاب جيش أبرهة الحاكم الحبشي من مكة وفشله في الاستيلاء عليها، في الحادثة المعروفة بقصة (أصحاب الفيل) بتمجيد لقريش، وعلو من شأنها، فأصبح العرب ينظرون إلى القرشيين، كما يقول ابن هشام في السيرة النبوية على أنهم "أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم منونة عدوهم".

لقد أراد أبرهة أن يحول أنظار العرب إلى الجنوب بعد بنائه معبدا مسيحيا فخما في صنعاء. ولما لم ينجح سلما، خرج بجيشه ليهدم الكعبة، وليحول القبائل العربية بتجارها وشعائرها عنوة عن مكة. وأصاب الطاعون جيشه، وجثا الفيل

---

على ركبتيه خارج البقعة المقدسة ورفض الحركة، وهاجمت  
الطيور القادمة من ساحل البحر الأحباش بحصباء مسمومة،  
وحولتهم الطير الأبائيل، إلى ما يشبه العصف المأكول.

وكان ذلك العام هو العام الذي شهد ميلاد النور المحمدي في  
مكة، ومن صلب قريش.



يرى جرجي زيدان في كتابه "العرب قبل الإسلام" أن اسم  
مكة من أصل بابلي آشوري.. لأن الكلمة تعني "البيت" في  
البابلية، وهو اسم الكعبة عند العرب، وقد امتازت مكة على ما  
يحيط بها من البادية ببيوتها الحجرية، وقد أشار الجغرافي  
اليوناني بطليموس إليها باسم (ماكورابا). كما جاء ذكرها عند  
ديودور الصقلي في القرن الميلادي الأول.

وتقع مكة في منتصف طريق القوافل بين اليمن و الشام في  
أحد أودية جبل السراة، وهو الوادي الذي وصفه القرآن الكريم  
بأنه "غير ذي زرع". ولكنها كانت فيما قبل الإسلام مركزا  
تجاريا ودينيا هاما، وفي منتصف القرن الخامس الميلادي  
استولى قصي بن كلاب وقبيلته قريش على مكة وأخرجوا  
منها قبيلة خزاعة، ولم يصل الباحثون إلى رأى حاسم فيما  
يتصل بأصل اسم قريش، وللطيرى نص طويل يفهم منه أنه  
ليس اسم شخص بل اسم سمكة ربما كانت "طوطم" القبيلة، أو  
صفة أطلقت على بعض زعمائها الأولين مثل النضر بن كنانة

( ) وبعضهم يشتقها من القرش أى التجمع أو من سمكة القرش. ويقول الأستاذ لامانس فى كتابه "مكة قبيل الهجرة" إن هذه المدينة نشأت فى موقع ممتاز عند أطراف أسيا البيضاء وفى مواجهة القارة الأفريقية السوداء، كما تقع أيضا عند منخفض كبير فى جبال السراة التى تقطع الحجاز من الشمال إلى الجنوب.. وقد استغل قصى بن كلاب زعيم قريش الأهمية الجغرافية والدينية لمكة "وقد نشأ هذا الرجل عند القبائل العربية التى تقم عند أطراف البادية، واستطاع أن ينتزع مكة انتزاعا من أيدى القبائل العربية التى كانت تسيطر عليها من قبله، ويقال أن البيزنطيين وعلماءهم من الفلاسفة قدّموا له العون فى هذه الحركة الانقلابية، ويؤكد الأستاذ لامانس حدوث هذه الواقعة، ويستدل على ذلك من اسم هذا الزعيم نفسه، فاسمه فى العربية معناه: الولد أو الغريب. ومن ناحية أخرى ورد اسمه فى النقوش النبطية القديمة، فاسم قصى كان من أسماء الآلهة عند الأنباط، الأمر الذى يدل على صدق ما يقال عن نشأة هذا الزعيم عند أطراف الشام، ثم اتحداؤه إلى مكة فى القرن الخامس الميلادى. واستطاع أن ينشئ جمهورية تجارية دينية تقيد من موقع مكة إلى أبعد الحدود.. وقد كان مجتمع مكة يتكون من طبقتين رئيسيتين، الأولى، ويطلق عليها تسمية: "قريش البطاح" وهم الذين يتولون أمر الدين والتجارة والسلطة، وبيوتهم حول الكعبة.. والثانية هم ما يطلق عليهم: "قريش الظواهر" ويقيمون خلف بيوت السادة، وهم خليط من فقراء قريش، ومن الحلفاء الموالى والعبيد، الذين يعملون فى المهن المختلفة، وقد كان من بين هؤلاء السابقين إلى الإسلام: كعب بن ياسر وأهله وقد كانت أمه بغيا قيل الإسلام، وبلال

---

الحيثى، وصهييب الرومى وطلحان الفارمى وغيرهم من  
المستضعفين الذين عبرت بهم قريش النبی، إذا كانوا من أوائل  
أتباعه الذين رد لهم الإسلام إنسانيتهم، فقللوا عنهم: "وهل  
اتبعه منا إلا الذين هم أرذلنا".



(٣)

القرآن

كمصدر للقصاص الديني



ارتبط القصص الديني الإسلامي، منذ بداياته، بالقرآن الكريم وما جاء فيه من القصص الذي شكل أهم وأدق القصص الديني، من حيث هو القصص القرآني "أحسن القصص" و"القصص الحق" كما أنه سجل الأنبياء وأعمال الشعوب السالفة وأنبيائها ورسلاها، وما يحمله تاريخهم من خبرات إنسانية صالحة لأن يعتبر بها أولوا الألباب. ويشير الفخر الرازي في تفسيره الكبير، إلى القصص القرآني بأنه "مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة" وزاد الرمخشري في تفسيره بأنه "القصص الذي يرقق القلوب". ويحتل قصص الأنبياء المقام الأول في القصص القرآني، لما لسير الأنبياء وتاريخهم من دور مهم في التاريخ الإنساني، كتجسيد للضمير الجمعي للبشرية، وكسجل لمسيرة الإنسان الروحية الإيمانية، في مقابل المسيرة السياسية والاجتماعية التي يمثلها التاريخ السياسي، لذلك ربط المؤرخون القدامى بين جانبي تاريخ البشرية: تاريخ الرسل وتاريخ الملوك، كما فعل الطبري في تاريخه المعروف، لو بين ظاهر التاريخ الإنساني وباطنه حسب تعريف العلامة ابن خلدون. ويضرب قصص الأنبياء بجذوره الأولى إلى طفولة البشرية، وسعيها المبكر إلى التعرف على قوانين الطبيعة ونواميسها التي تجسد الإرادة الإلهية.



وقصص الأنبياء، والشعوب البشرية، التي صاغها وأعاد روايتها عن مصدرها القرآني الإلهي، "القصص والوعاظ شفاهاً في عهد الرسول والمصور التالية وكما رواها المحدثون والإخباريون والمؤرخون في كتب السنة، والمسيرة، والتفسير، والتاريخ، والتصوف، وغيرها". قد انتقلت بعد ذلك إلى كتب الأدب العام، وإلى مرويات التراث الشعبي. وتمثل سيرة ابن هشام، والمسيرة الحلبية، وكتب المؤرخين القدامى، كالطبري، واليعقوبي، وابن كثير، وابن خلدون، وكذلك كتب تاريخ الأديان، كالممل والنحل للشهرستاني، وكتب التفسير والحديث، والكتب الخاصة بقصص الأنبياء، تمثل هذه الكتب مصادر القصص الديني الإسلامي بداية من قصص الأنبياء إلى قصص أهل القرى البائدة، إلى المسيرة النبوية الشريفة. وقد اتسعت هذه المصادر بعد ذلك، لتشمل كتب الأدب العام، كالعقد الفريد لابن عبدبر، وأسالي أبي علي الغالي، والكامل للمبرد، وغيرهم. كما ضمت السير الشعبية في متونها بعض قصص الأنبياء كما في سيرة جنرة. وأضاف المؤلفون والمصنفون لهذه الكتب، إلى النصوص القرآنية، التي بنوا عليها قصصهم وسيرهم، ما توفر لهم من التراث الإنساني، كقصص التوراة والإنجيل، وهو ما عرف بعد ذلك بـ "الإسرائيليات" والأساطير الفارسية والهندية واليونانية، وهو ما عرف بـ "أساطير الأولين" ثم أخبار العرب القديمة وأساطيرها وتاريخ أيامها قبل الإسلام، الأمر الذي جعل من هذا القصص الديني كنزاً غنيا بالمادة الأولية للإبداع الأدبي، والتاريخ الوجداني للبشرية، في سعيها الدائب للهداية والدين

الحق.

وإذا كان المؤرخون لم ينظروا إلى هذه المادة الفنية، كمصدر موثوق للمادة التاريخية، وإنما كأطار زمني لبعض الأحداث، فإن هذا الموقف لم يمنع بعض المؤرخين ومؤلفي السيرة القدامى من النظرة الرحبة والمستنيرة لهذه المادة الفنية، مثلما فعل صاحب السيرة الحلبيّة، الذي نظر إليها كرفائق لا تدخل في الحلال والحرام، ولا تتعلق بها الأحكام. أما ما يجوز الخلاف فيه في نظر علماء الحديث، وما يوجب بالتالي التنقيق والتفتيح، من أجل الوصول إلى صحة الخبر، فهو ما يخص حدود الشريعة ومعرفة الحلال والحرام. وكذلك يشير الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في دراسته "الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام" إلى أن القصد من الدراسة لن يكون تحديد الإطار التاريخي للموضوع بقدر ما سيكون محاولة معرفة نظرة الإسلام الكلية إلى تسلسل الأنبياء والمتنبئين. بطريقة تحمل في ثناياها فكرة وحدة العقائد والأديان، فكان الإسلام ليس دين التوحيد الإلهي فحسب، بل هو عقيدة وحدة الأديان على مر العصور، وهي الفكرة التي تتمثل في أصول الإسلام الإبراهيمية، وفي ختام النبوة بالرسالة المحمدية". لقد ارتبط تاريخ البشرية الإيماني بالأنبياء، منذ بداية الخليقة ووعدها لذاتها، ويكاد عدد الأنبياء الذي تشير إليه أخبار التراث الإنساني، يفوق الحصر العندي، فالنبوة كما يشير القرآن الكريم مرتبطة بالمشيئة الإلهية وبالوحدانية "يُنزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنزلوا أنه لا إله إلا أنا فاتقون" وقد بعث الله برسله إلى

كل الأمم، بلا استثناء، يدعوهم إلى عبادته واجتذاب الطامعوت، وهؤلاء الرسل الموحى إليهم من الله، والذين سبقوا برسالاتهم، يعرفهم العلماء من أهل الذكر، فالحذالة الإلهية لم تعاقب الظالمين والجاحدين من الشعوب السابقة، قبل أن ترسل إليهم من يبلغهم برسالة الله وتعاليمه "وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون".

لم يحدد القرآن الكريم إلا أسماء الأنبياء الأساسيين: آدم نوح إبراهيم موسى وعيسى ثم محمد خاتم الأنبياء عليهم السلام. يليهم: داود وسليمان ويعقوب ويوسف وأيوب، وإسماعيل، وشعيب، وهود وصالح عليهم السلام. وينتمى هؤلاء الأنبياء إلى العبرانيين والسريان والعرب، وهي الشعوب العروبية، التي شكلت الحضارات الإنسانية الأولى في منطقة الشرق الأدنى القديم. لذلك أطلق المؤرخون القدامى لخيالهم العنان في إحصاء عدد الأنبياء.. فالسيرة الحلبية تشير إلى أن أنبياء بني إسرائيل وحدهم ألف نبي.. ويصل وهب بن منبه راوى أساطير الأولين بعدد الأنبياء جميعا إلى مائة وأربعة وعشرين ألفا! أما الرسل فقد اقتصر عددهم على ما ورد في القرآن الكريم، "لأن الرسول أخص من النبي، ولأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا".



## الرؤية القرآنية للتاريخ: الزمان

ليس القرآن الكريم، كما أشرنا من قبل كتاب قصص عن الأنبياء والرسل والأمم السابقة، كما أنه ليس كتاب تاريخ يتتبع سير الأجيال وتاريخ الشعوب، ولكنه تنزيل من رب العالمين على نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه يفيد من قصص الأنبياء وسير الأولين، وتاريخ الأمم والملل والنحل في الدعوة إلى حياة جديدة سامية، تهي تجربة الماضي في جوهرها، تاركة للوقائع والتفاصيل للمؤرخين والرواة.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا المنهج صراحة، فهو يخاطب النبي عليه السلام بقوله: "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك، منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك" وما كان على الرسول أن يبينه: "قال لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله، أفلا تعقلون. فمن أظلم ممن افترى

على الله كذباً أو كذب بآياته، أنه لا يفلح المجرمون". فالقرآن الكريم على أساساً بجوهر الرسائل الدينية التي سبقته، والذي تمثل في الحضارات التي شهدت هذه الرسائل، سواء منها تلك الحضارات التي سادت ثم بادت، كما حدث في الحضارات العربية القديمة، أو تلك التي تعرضت فيها الكتب المقدمة إلى تحريفات توافق أهواء ومصالح المسيطرين على هذه الحضارات. فالتاريخ على حد تعبير السيد محمد رشيد رضا في "تفسير المنار" غير مقصود للقرآن الكريم "لأن مسأله من حيث هو تاريخ، ليست من مهمات الدين، من حيث هو دين، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره، لم يبين الزمان والمكان، كما بينا في سفر التكوين". (السفر الأول من أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس التوراة). والأمر كذلك في رأى الدكتور محمد أحمد خلف الله في كتابه "الفن القصصى في القرآن الكريم" إذ يرى أن القرآن الكريم لم يقصد إلى التاريخ إلا في القليل النادر الذي لا حكم له، وأنه على العكس من ذلك، عمد إلى إيهام مقومات التاريخ من زمان ومكان. ومن هنا يتبين أن القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ، وهى غير مقصودة، وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآنى.

وهى دراسة مهمة للدكتور عبد العزيز كامل أستاذ الجغرافيا البشرية، والمفكر والسياسى المعروف، عن "القرآن والتاريخ" يحدد علاقة القرآن الكريم بعناصر التاريخ من زمان ومكان وأحداث وشخصيات وأبطال ومناهج التاريخ فى جمع

المعلومات وتحقيقاتها وتفسيرها. وصناعة التاريخ، بمعنى استلهاه في صناعة المجتمعات الإنسانية.

يبرز القرآن ثلاثة أنواع للزمان، هي: الزمن الكوكبي الفلكي، والذي تقوم عليه حسابات البشر في معاشهم، كما تقوم عليه حسابات العبادات كالصوم والصلاة والزكاة، وأعمار الحضارات ودورات ازدهارها وسقوطها، يقول الله تعالى: "لو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون، من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون".. كما يقول تعالى عن منكري البعث: "والذي قال لوالديه أف لكما اتعد اتنى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى، وهما يستغيثان الله، وبلك آمن أن وعد الله حق، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين". وإلى جانب اهتمام القرآن الكريم بالزمن الكوكبي، فقد اهتم بما قبل هذا للزمان، أى ما قبل خلق الكون والإنسان، كما اهتم بما بعد ذلك الزمان "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار".. واهتم القرآن بالزمن النفسى، أى بإحساس البشر بالزمن، ويضرب الله مثلا بحوار يدور يوم القيامة:

قال: كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟  
قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم فأسأل العادين.  
قال: إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم تعلمون فحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون".

ويستوقف النظر الفارق بين معالجة القرآن لأجزاء الزمان، ومعالجة سفر التكوين فى العهد القديم لها.. حيث ورد فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين ما نصه: "هكذا كتاب مواليد

ادم. يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله، ذكرنا وأنشئ خلقه الله وباركه، ودعا اسمه ادم خلق. ذرية ادم أسما أسما، وعمرا عمرا حتى طوفان نوح، ثم تتعاقب سلالة نوح أسما أسما وعمرا عمرا. ويعقب الباحث موريس بوكاي في كتابه "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" بقوله: "ولكى نكون أكثر قربا من الحقيقة، لنقل أن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبري يحدد تقريبا بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد. وهناك استحالة وجود اتفاق واضح بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان، وبين أكثر المعارف تأسسا في عصرنا".

ويقصر الدكتور عبد العزيز كامل سورة يوسف في ضوء أسلوبيين في معاملة الزمان جمع بينهم القرآن في تلك القصة. ففي موقفه عليه السلام من امرأة العزيز لا تحدد المدة في القصة ولكن يشير إلى الزمن إشارات مجملّة: "حتى حين" و"بضع سنين".. أما عندما يتصل الزمان بالتخطيط لإنقاذ الناس من المجاعة المنتظرة، فيبدو حساب الزمن دقيقا، قال: "ترعون سبع سنين دابا، فما حصنتم لقروء في سنيله إلا قليلا مما تأكلون، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قنتمن لهن إلا قليلا مما تحصنون، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون".. فقد ارتبط حساب الزمن هنا كما يقول الدكتور عبد العزيز كامل بالتخطيط والعدل، كما ارتبط إغفال الزمن بالتسبب والظلم، وكان تعريف الزمان وتذكيره، عاملا ساعد على إبراز الظاهرة الاجتماعية، ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية هدف القصة في القرآن.

---

## الرؤية القرآنية للتاريخ: المكان

.. وكما أن القرآن الكريم كما أسلفنا ليس كتابا في القصص أو التاريخ فهو أيضا ليس كتابا في الجغرافيا، فاهتمامه بالمكان ينبع ويتجه إلى الدعوة الإسلامية، فمركز التاريخ الإنساني في القرآن هو البيت الحرام، أول بيت وضع للناس وحوله منطقة القلب التي ترتبط بها شعائر العبادة الأساسية من الصلاة والحج: الوحدة والتوحيد، والكسب الحلال للإنفاق الحلال وأرزاقهم من الثمرات لعلهم يشكرون\* وحولها دائرة الغزوات حيث يمثل الدفاع عن العقيدة وحماتها، وتليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد على المحورين الشمالي والجنوبي، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب المسير في الأرض لمزيد من الاعتبار، سيرا إلى مطالع الشمس ومفاريها، وعملا في مجال



العقيدة، والإتشاء والتعمير، والحصول على مزيد من العلم مع التواضع الدائم لله.

ويتبع الدكتور عبد العزيز كامل في دراسته "مدخل جغرافى إلى قصص القرآن الكريم" تفاصيل هذا الإجمال.. فالبيت الحرام الذى يمثل منطقة القلب فى القصص القرآنى والتاريخ الإنسانى، ارتبط به أكبر عدد من الأسماء متجمعة: البيت، مكة، مقام إبراهيم، الصفا، المروة، عرفات، المشعر الحرام، ثم ما جاء بصفته لا باسمه كالغار الذى أوى للنبي فى هجرته ثم "نطاق الغزوات" الذى يحيط بمنطقة القلب، المدينة، وقد وردت فى القرآن الكريم باسمها كما وردت باسم يثرب، وغزوة بدر وقد اختصها القرآن بورودها فى ثلاثة أماكن: فهى بدر وهى العدة الدنيا والعدة القصوى.

وعلى محيط دائرة القلب أو قريباً منها توجد: اليمن، العراق، الشام، مصر، وفى نطاق هذه الدائرة وقعت معظم أحداث القصص القرآنى.. ففي جنوبى اليمن وقعت أحداث قصة قوم عاد ونيهم هود.. "وانكر أخا عاد إذ انذر بالاحقاف" وهى جبال الرمل باليمن، وقد كانت موطناً غنياً، ثم سبأ التى كان لهم فى مساكنهم أية "جنتان عن يمين وشمال" وما زالت آثار سد مأرب والجنتين باقية.

وعلى المحور الشمالى حيث طريق التجارة، تقع قرى قوم لوط التى أشار إليها القرآن الكريم باسم المدينة، والسبيل المقيم، والموتفكات، ثم مدين، التى يسكنها أصحاب الأيكة.. وديار ثمود أو أصحاب الحجر، الذين كانوا ينحتون من الجبال بيوتا أملىن،

والذين أخذتهم الصيحة مصبحين.

ثم يتفرع محور الشمال في الجغرافيا القرآنية إلى ثلاث شعب.. الأولى إلى الشمال، حيث المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.. ثم بلاد الروم، الذين غلبوا في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون.. وقرية سورة ياسين التي يرى الزمخشري في تفسيره أنها انطاكية.. وامتدادا لقوس بلاد الشام الموصل للعراق، هناك بابل، وتتصل بالعراق قصص نوح وإبراهيم، كما يتصل بالشام قصص إبراهيم وخريته.. ثم إلى الشمال الغربي حيث مصر، التي افتخر فرعون بملكها "ليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي"<sup>١</sup> وفي الطريق إلى سيناء: "وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للأكليين"<sup>٢</sup> وترتبط بمصر قصص: إدريس، إبراهيم، اسحق وبنيه، إسماعيل، يوسف، موسى وعيسى ومحمد في ليلة الإسراء وبولده إبراهيم من ماريه القبطية.

أما القصص القرآني التي لم يحدد مكانها، فأبرزها: قصة آدم، قصة أهل الكهف، وقصة بدء التاريخ الإنساني في القرآن هي قصة الأب الأول آدم: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساملون به والأرحام أن الله كان عليكم رقيبا"<sup>٣</sup>.. وترد قصة أبي البشرية الأول في مطالع سورة البقرة في القرآن الكريم، كما ترد في سفر التكوين الذي يبدأ به العهد القديم من الكتاب المقدس. وتلتقي القصة التوراتية مع القصة القرآنية في بعض الجوانب، ثم تختلفان في نواح جوهرية.. ويأتي الاتفاق في وجود الأب الأول والأم الأولى، وفي كرامة البداية، ثم في

تعرضهما للاختبار، أما الخلف الجوهري، فهو في قضية "التوبة" حيث غفر الله لادم وثاب عليه، يقول تعالى في سورة طه "وعصى ادم ربه فغوى، ثم اجتاه ربه فتاب عليه وهدى". .. وقد وردت توبة ادم في القرآن مرتين، الأولى في سورة طه المكية، والثانية في سورة البقرة المدنية "كانت عند ادم وزوجه حرية الاختيار وكانت تجربته الأولى نجاحا: عندما علمه ربه الاسماء، ثم امره أن يخبر بها الملائكة، فقام بأمر الله، ما ضل ولا نسي، "وعلم ادم الاسماء ثم عرضها على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك، لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العزيز الحكيم، قال: يا ادم أنبئهم بأسمائهم، فلما أتياهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبون وما كنتم تكتمون" ثم تجن حرية الاختيار وهي التجربة الثانية "فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءتهما. قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين".

كانت التجربة صراعا بين الطموح بكل مغرباته، وبين صريح أمر الله، كانت تجربة أولى في حرية الاختيار، تاب منها ادم وقبل الله توبته، وتلقى من الله كلماته، وجعله خليفة في الأرض، وهو نبي مكرم، هذا بعد أن كفل له في الجنة أموراً هي حاجات الإنسان الأساسية "إن لك الا تجوع فيها ولا تعرى" فليس هناك خطيئة سابقة، فتوبة الله على ادم سبقت. وكلمات الله تهديه الطريق. لا لعنة. لا عقوبة. لا عداوة بين الرجل والمرأة. ولا بين الإنسان والأرض. ولا بين الإنسان والحيوان. وهذه الصورة القرآنية تخالف ما يصوره الإصحاح الثالث من سفر التكوين".

---

## القرآن وأبطال التاريخ المجهولون

عرض القرآن الكريم قصص الأنبياء ضمن مفهوم يؤكد على بشريتهم من جهة وعلى اتباعهم لأوامر الله من جهة ثانية، يقول الله تعالى على لسان نبيه الكريم: "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إِلَهُكم إِلَه واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً" ويقول تعالى عن الأنبياء والمرسلين السابقين: "وما أَرْسَلْنَا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليَأْكُلُوا الطَّعامَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ" .. وهم جميعاً سيلاقون الموت، وتبقى رسالاتهم، كما أنهم جميعاً خلقوا من تراب.. وتتبع عصمتهم من اصطفاء الله لهم، "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وإبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم" .. وهذا المفهوم للمصمة النبوية البشرية يخالف مفهوم النبوة في أسفار العهد القديم.

ومما تفرد به القرآن الكريم عنايته بالأبطال المجهولين في التاريخ، فقد اختصهم بعدد من الآيات، وأشاد بمواقفهم، وسلط عليهم من الضوء ما تجاوز ما سلطه على بعض الأنبياء، وقد لفت هذا الأمر اهتمام بعض المفسرين والمؤرخين والباحثين إلى هذه الشخصيات التي لم يتوقف عندها كتاب الملاحم ورواة الأخبار، وحاولوا أن يقتصوا أخبار هؤلاء الأبطال المجهولين: ما هي أسماؤهم، ومتى عاشوا، وأين؟ كما جذبت قصة أهل الكهف الذي كان فيه الكهف، والذي رأى البعض أنه في مواقع قريب من العاصمة الأردنية عمان، بينما رأى آخرون بأنه على قرب إيسوس بآسيا الصغرى، وإن كان القرآن الكريم، كما يقول الدكتور عبد العزيز كامل، يوجه عنايته أساساً إلى العبرة الأخلاقية دون تحديد الأشخاص، إلا حيث تقتضي العبرة ذكرهم، وقد تجاوز القرآن الكريم في قصص هؤلاء الأبطال المجهولين عناصر تحديد الأسماء والأماكن والأزمنة.



وأكثر قصص الأبطال المجهولين القرآنية تفصيلاً هي قصة "مؤمن آل فرعون" التي تبدأ بقوله تعالى في سورة غافر: "وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: اتفقتون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من

هو مسرف كذاب" ثم يستمر السرد القرآني للقصة ثماني عشرة آية تحمل خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون إلى قومه منذرا إياهم ومحذرا من بأس الله إذا جاء، ومن يوم مثل يوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ثم يأتي ختام القصة بعد عرض مشاهد يوم القيامة، يوم يقوم الأشهاد لتؤكد أن الله ينصر رسله وينصر الذين آمنوا في الحياة الدنيا والآخرة. "والقصة مما تترد به القرآن، وهي درس في النفاق عن الحق والدعوة إليه، لها فيها المؤمن إلى تذكير قومه بالآخرة، ثم نذكرهم بقوم نوح وعاد وثمود، وربط جحودهم بما حدث من إياتهم بعد وفاة يوسف "حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا" وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون وهو يأمر وزيره هامان أن يبني له صرحا، يبلغ به أسباب السماوات ليطلع إلى إله موسى، ثم دعا قوم فرعون إلى اتباع الحق. وصرح الرجل بليمانه بعد أن كان يكتمه، وحذر قومه مغية سينات ما مكروا ونجى الله المؤمن وحاق بال فرعون سوء العذاب".

وتعرض سورة يس لقصة مؤمن آخر دافع عن رمل عيسى الذين جاءوا إلى مدينته، فلما علم بهم، وبما يحملونه من هداية، ومن دعوة إلى الله، جاء من أقصى المدينة يسعى ليقول لقومه: "اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون" وتتضمن سورة الكهف قصص: أهل الكهف، وصاحب الجنتين الذي اغتر بما يملك، ثم يأتيه صاحبة المؤمن ليدله على الصواب ويحذره من عاقبة الجحود، ثم قصة العبد الصالح الذي تعلم منه موسى، وقصة ذي القرنين: "ومع أن المدار الرئيسي لهذه

القصاص جميعا هو الإيمان بالله تعالى، إلا أن مناقش هؤلاء الأبطال في المجتمع متنوعة، وتمثل الحرف الرئيسية، زراعة وصناعة وتشبيها (بناء).. وهذه البطولات المجهولة ممثلة ولا تزال تظهر في نصرة الحق، يقول الله تعالى: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا". وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم:

"فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم، من ذكر أو أنثى، بعضهم من بعض، فالذين هاجروا من ديارهم وأولادهم في سبيلي وقتلوا وقتلوا، لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب". وهكذا ندعو الأيالت إلى متابعة رحلة الخير والعمران، وبناء الحياة الاجتماعية على قاعدة من العمل الصالح، منيرة الطريق أمام البطولات الجديدة التي لا تقتصر على مواقع محددة من المجتمع.

"وصفوة القول إن البطولة في القرآن لا تقتصر على الأنبياء، وإن كان لهم فيها النصيب الأوفى، ولا تقتصر كثيرا عند الملوك، وإنما تمتد مظللتها لتشمل الأبطال المجهولين والجموع المؤمنة. وإذا كانت العناية قد زادت في الاتجاهات التاريخية المعاصرة بحركات الشعوب والجماعات الإنسانية، وفيها الكثير من البطولات المجهولة، فإن قطاعات التاريخ التي عرضها القرآن الكريم تضم هذه جميعا وتتسع له".



---

## القران.. وأساطير الأولين

للغرب مثل بقية شعوب الأرض أساطيرهم، وقد مروا  
كما مرت تلك الشعوب "بالمرحلة الأسطورية" التي يعرفها  
بعض الباحثين بأنها قطعة من حياة الروح التي تعكس تفكير  
الشعب الحلمى، فالحلم هو أسطورة الإنسان الفرد، كما أن  
الأسطورة هي مغامرة العقل البدائى الأولى.. كما إنها هي الرحم  
الذى خرجت منه فنون السرد الشعرية والنثرية، كالمحمة،  
والتراجيديا، والحكاية، وفي تراثنا العربى - تنتمى الأسطورة  
والقصة معا إلى مرحلة الثقافة الشفاهية، التى ما زالت ممتدة  
حتى عصرنا.

وفى الأدبائ القديمة قامت الأسطورة مقام العقيدة بمعناها  
الشامل والمقدس، كما كانت لها وظيفتها الاجتماعية والقانونية  
والأخلاقية، وهى فى صيغتها الأولى كانت رمز الجانبين:  
أحدهما اعتقادى تكون فيه الأسطورة أداة للمعرفة والكشف



والفهم والتنظيم، والأخر طمسي يستهدف استرضاء الآلهة والتعبد لها، فالأسطورة والحالة هذه هي التفكير في القوى البدائية الفاعلة الغائبة، وراء هذا المظهر المتبدى للعالم، وكيفية عمل هذه القوى وتأثيرها وارتباطها مع عالمنا، ولهذا كله يكاد الباحثون يجمعون على أن الأسطورة كانت كل شيء بالنسبة للإنسان القديم أو البدائي، كل تاملاته وحكمته ومنطقه وأسلوبه في الكشف والمعرفة ووضع نظام مفهوم ومعقول للوجود، يقتنع به هذا الإنسان ويجد مكانه الحقيقي ضمنه، ودوره الفعال فيه، أنها الإطار الأسبق للتفكير الإنساني المبدع الخلاق، الذي قادنا على طول الطريق الشاقة التي انتهت بالعلوم الحديثة، والمنجزات التي تفخر بها حضارتنا القديمة، أنها أداة الإنسان الأقدم في التفسير والتعليل، كانت أنبه وشعره وفنه، كما كانت شرعته وعرفه وقانونه.<sup>(١)</sup>

وقد ورد مصطلح الأساطير في القرآن الكريم مرتبطاً بالتصورات الدينية الوثنية، وليس بمعنى الأباطيل والخرافات والأكاذيب، كما فهم بعض المفسرين المتأخرين، وكما أصبح دارجاً في الاستعمال اللغوي السائد الذي يشير إلى الأسطورة بمعنى مالا وجود له في الواقع، رغم أن الجذر اللغوي للكلمة يشير إلى معناها الصحيح فالفعل الثلاثي "سطر" يشير إلى معنى الاعتقاد والنص والتأليف، الذي يقود إلى التدين والتسيطر والنقش، ويشير السياق القرآني إلى أن أساطير الأولين كانت تتلى على الناس أيضاً بمعنى تداولها شفاهاً. وقد وردت كلمة أساطير في القرآن الكريم بصيغة الجمع دائماً وفي السور المكية وحدها، أو في السنوات الأولى لنشر الدعوة المحمدية، وفي

مواجهة المعتقدات الجاهلية الوثنية. قال تعالى: "وقالوا أساطير الأولين اكتتبها، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً". وقد سبقت الإشارة إلى قصة النضر بن الحارث وما كان يحدث به سادة قريش من أساطير القرس والأمم القديمة. فالأسطورة في المفهوم القرآني، تشير إلى المعتقدات الدينية والثقافية للأزمان الغابرة والأمم البائدة، والتي تم تدوينها تسطيرها لهدف ديني وثقافي، ولتصبح نصاً مقدساً عند الشعوب السابقة، وأن كان الأصل فيها التداول الشفاهي، أثناء الطقوس والشعائر، فالشفاهية هنا لا تتناقض مع الكتابية.

وقد استخدم المشركون مصطلح الأساطير في حربهم الفكرية والدينية ضد القرآن الكريم بمعنى سلبى، بمعنى الأحاديث الباطلة، والأقاويل التي تنتمى إلى زخرف القول. وقد تبنى المفسرون وعلماء اللغة، بعد ذلك، هذا المعنى، فأصبحت الأسطورة عندهم، هي القصة الدينية التي لا أصل لها من وحي أو خلافة، وهي نصوص كتابية أو شفاهية ذات لغة شعرية منمقة وزخرفية، تنسب إلى الإبداع الجماعي، الذي نقلها عن أحاديث الأولين وخرافاتهم، أو هي سجع الكهان كما يرى بعض المفسرين. ولكن ما إن اطمأن العرب إلى صدق الرسالة المحمدية، حتى اختفى مصطلح الأساطير من جميع السور المدنية بلا استثناء، وأصبح القرآن الكريم كتاب الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وبات دين الآباء ومعتقدات الأجداد هي (أساطير الأولين) بطوابعها الوثنية وقوايلها القصصية، فقد كانت معظم المعتقدات والمعارف الجاهلية مصاغة صياغة قصصية، وبصرف النظر عن المحتوى

العقائدي أو الدلالي للأساطير، فإن الذي يعنينا هو تأكيد القدماء على جانبها الحكائي أو إطارها القصصي. باعتبارها الجانب الحي الباقي من الأسطورة، حيث تموت وظائفها الاعتقادية والدينية والمعرفية<sup>(٢)</sup>.

وقد وقف علماء الحديث، ورواة الأخبار، والفقهاء المسلمون في عصر التكوين موقفاً متشدداً من الأساطير العربية القديمة، بدافع من التحرج والتورع عن روايتها، وترديدها أو تنوينها، اللهم إلا عند ضرورات قصوى، مثل شرح شعيرة إسلامية، أو بيت من الشعر، أو مسألة بلاغية، رغم أن التكوين تم بعد استقرار الدين، وبعد عصر الفتوحات الكبرى. وعندما سجل محمد بن اسحق أول رواية السيرة النبوية، بعض هذه الأساطير، جاء ابن هشام فاستبعد هذه المادة الأسطورية. ومن المؤكد أن معظم التراث الأسطوري العربي قد ضاع فيما ضاع من التراث الأدبي العربي السابق على الإسلام، بعد أن مر في عصر التكوين بالمصفاة الإسلامية الدينية والثقافية، وإن تسربت بعض هذه المادة الأسطورية إلى كتب الإسرائيليات والكتب التاريخية الأولى، وموسوعات الأدب العام المبكرة وضاع على العرب علم غزير<sup>٣</sup> على حد تعبير الأصمعي الراوية المعروف، لكن هذا الأمر لم يقعد الباحثين المعاصرين عن التتقيب والبحث عن بقايا المادة الأسطورية في المصادر القديمة .



---

٢١و: التراث القصصي في الأدب العربي د. محمد رجب النجار .

(٤)

بدايات

القصص الدينية الإسلامية



يعرف القصص الديني الإسلامي في التراث العربي، اختصاراً، بـ "القصص المسجدي" لأنه نشأ ونما في جانبيه الرسمي والشعبي، فوق منابر المساجد ابتداء من العصر النبوي، فالعصر الراشدي إلى العصر التركي العثماني الذي شهد هو والعصر المملوكي إنتاجاً غزيراً شعراً ونثراً في القصص الديني الإسلامي، وخاصة فيما يتصل بالسيرة النبوية.

"وهذا يعني أن للقصص الإسلامي تاريخاً طويلاً، تفرع فيه وتشعب، وتعدلت فيه وظائفه وتبدلت، وانقسمت السلطات بشأنه وتفرقت.. لكنه ظل صامداً في جانبيه الرسمي والشعبي: الرسمي تحميه الدولة، والفقهاء، دون أن ينجح ابتداء من القرن الثاني (الهجري) في أن يكون له جمهور، أما الشعبي فقد نما وتطور، فنياً وبنائياً ووظيفية، حتى استأثر بجمهور المسلمين، برغم الحرب الشعواء التي شنّها عليه النظام، والفقهاء، ورجال الحسبة (المحتسبون) على مر العصور.. فقد كان القرب إلى نفوس المستمعين، من حيث موضوعه وقضاياها ومضامينه، كما كان القرب إليهم من حيث جمالياته السردية، وجاذبية الأداء القصصي الشفاهي لفصائلي العامة. (التراث القصص في الأدب العربي د. محمد رجب التجار).

ولعلّ الذبابة اليهودية هي أبرز الذبابات النوحيدية اختلفت

بالسرد القصصى، فقد ورثت أسفار العهد القديم (التوراة) التراث القصصى للشعوب التى إحتك بها العبريون كالمصريين، والبابليين، والسومريين، والكنعانيين، منذ عصر الأسطورة التى كانت الإطار الأقدم والمحبيب لسرد القصص المقدسة عند هذه الشعوب، والتى كانت تحتوى داخلها (الأسطورة) على المعتقدات البدائية الدينية وعلى خبرات الشعوب القديمة فى المعرفة، ثم جاء الإنجيل ليرث ذلك التقليد الدينى اليهودى، فى الاعتماد على السرد القصصى، فى بث تعاليمه وإثارة الروحانية. ثم ورث القرآن الكريم، بإيداعه الخاص، والذي لم تكن القصة الدينية فيه، مقصودة لذاتها، وإنما لوظيفتها الدينية والتربوية، ورث القصص الدينى الذى عرفه أهل الكتاب قبل الإسلام.

لقد سمح النبى صلى الله عليه وسلم لبعض صحابته برواية بعض القصص الدينى القرآنى فى مسجده فى المدينة، باعتبار هذه القصص من القصص الحق، لا قصص الأسفار والخرافات التى كان بعض العرب يقصها ليستأمن بها الناس، وكان الصحابى "عيم الدارى" أول قاص فى الإسلام يقص على الناس القصص الدينى بعد وفاة الرسول، ثم كان "عبد الله بن عمرو" على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهم.

ثم ارتبط القصص الدينى القرآنى، بعد ذلك، بالوعظ المسجدى، حيث أصبح الهدف من السرد القصص الفنى هو "القصص والوعظ والتذكير" ويقول ابن الجوزى أن للقصص الدينى ثلاثة أسماء هي: قصص تذكير - وعظ. فالقاص هو الذى يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها، وشرحها، وذلك هو القصص،

وهو في الغالب، ممن يروى عن أخبار الأولين. لأن في إيراد أخبار الأولين عبرة لمن يعتبر، وعظة لمزدجر، واقتداء بصواب لمتبع.. وأما التذكير: فهو تعريف الخلق نعم الخالق عليهم، وحثهم على شكر نعمته، وتحذيرهم من مخالفة أوامره ونواهيه. وأما الوعظ فهو: تخويف يرق له القلب. وقد أصبح اسم القاص يجمع بين الصفات الثلاثة وقد أمر القرآن الكريم بهذا كله، قال تعالى: "فانقص القصص" وقال تعالى "فعضهم" وقال تعالى: وذكر فإن التكري تنفع المؤمنين".

ولم يقتصر القصص القرآني، على الوظيفة التذكيرية والوعظية وحدهما في عصر الخلفاء الراشدين بل أنه أيضا خرج من حلقات الوعظ والتذكير في المسجد ليرافق الجيوش في فتوحاتها الإسلامية، حيث أصبحت هناك حاجة إلى هؤلاء القصاص لتثبيت القلوب، وشحن الهمم، فكان القصاص المصاحب لجيش الفتح يحث المجاهدين على الثبات والاستبسال، كما يوبخ من تراوده نفسه على النكوص والتراجع وكان طبيعيا أن تطفئ الوظيفة التحريضية على قصص تلك المرحلة، قصص الفتوحات، فلما انتهى دورهم بتوقف قصص الفتوحات، عادوا إلى أوطانهم، أو استقروا في الأمصار الجديدة يواصلون القصص، وانتهى بهم المطاف إلى أن أصبحوا قصاصا محترفين، واصلوا دورهم القصصي لغايات دينية كما كان أمرهم من قبل.





## صورة القاص في التراث

كان للعامة قصاصهم وواعظهم، كما كان للخاصة أيضا، وللخاصة السيق في خلق وظيفة القاص، الواعظ، المذكور .. ثم شاركوا العامة بعد ذلك مجالسهم وحلقات قصاصيهم، خاصة إذا كان صاحب المجلس من سادات القصاص والمذكرين.

لكن هذه المجالس تحولت رويدا رويدا إلى مجالس للعامة، فرفضوا عليها تقاليدهم الخاصة، ولم يعد المحدث القاص فيها من العبادة، بل أصبح واحدا من العامة، يتخذ من القص مهنة يعيش منها، وأصبحت تلك المجالس أقرب ما تكون إلى حلقات القصص الشعبي، حيث اقتصر روادها على العامة والنساء، وحيث تحول القاص إلى ما يشبه الممثل المسرحي في عصرنا ورغم أن الفقهاء وعلماء الخاصة استنكروا هذا النوع من القصص الشعبي الديني، إلا أن الجمهور تعلق بهذا اللون من

القصص، الذي رأى فيه نوعاً من الأداء الفني الشفاهي، يخاطب عند هذا الجمهور المحروم عاطفته الدينية والفنية معاً، وكان للفقهاء قد حددوا الشروط التي يجب أن تتوافر في القاص يد:

- حفظه للحديث النبوي ومعرفته بصحيحه من سقيمه
- معرفته بتاريخ الأمم وسير الأولين.
- حفظه لأخبار الزهاد والمستقين فقهه في الدين فصاحته لسانه ومعرفته باللغة العربية وعلومها. إضافة إلى السلوك القويم، وتنزهه عن النفاق وأكل أموال الناس بالباطل، وتجنبه للعوام والمزاح معهم، ولا يرى إلا في ساعة وعظه حتى يظل موقفاً فيهم، مهيباً بينهم، فإنه متى خالطهم أو مازحهم ذهب هيبته من القلوب.. ومتى كان القاص عالماً بتفسير القرآن والحديث وسير السلف والفقهاء عرف الجادة ولم تخف عليه بدعة من سنة، ودله علمه على حسن القصد وصحة النية، حسبما يقول ابن الجوزي، الذي يستقر في رسم الصورة المثالية للواعظ أو القاص أو المنكر، من وجهة نظر الخاصة فيبلغني على الواعظ أن يحصر قصصه في إطار المواعظ المرفقة والزواجر المخوفة، وأن يضمن كلامه الوعد والوعيد، والتشويق إلى الجنة والتخويف من النار، والأمر بالمحافظة على أركان الإسلام، وبر الوالدين وصلة الرحم وفعل المعروف والنهي عن المنكر، وإمسك اللسان عن فضول الكلام، وعض البصر عن الحرام.. وليكن ميله إلى المخوقات أكثر بعد أن غلب الطمع على القلوب، ولا بأس في ينشد الأدبيات الزهدية، فإن من الشعر حكمة، وأن

يتكلم في الأصول ويترك الفروع، وأن يدعوا الناس إلى الترحم على الصحابة، ويكف نفسه عما شجر بينهم بمعنى أن يبتعد عن القصص التي تصور الصراعات التي حدثت بين الصحابة فإن وعظ سلطانا تلطف غاية اللطف، فليذكر الوعظ عاما ليأخذ السلطان منه نصيبا. وقد كان في المملطين من يولجه بالإنكار فيصير، وليس ذلك بحرام ولكن التلطف لولي، قال عز وجل "قلولا له قولاً لنا" فإن قيل: فما نقول في قوله عليه السلام: "افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" فالجواب أنه إذا كان الجائر لا يقبل الحق جاز أن يورى عن الحق خوفا على الناس. والأفضل أن يبدأ بالحق، ومتى ما أمكن التلطف فلا وجه للعنف. [قولا عن د. محمد رجب النجار التراث القصصى].

ولكن هذه الصورة المثالية للواعظ القاص الذي هو جزء من المملطة السياسية والدينية، لم يكتب لها الانتشار كثيرا، إذ غلبت عليها الصورة الشعبية لتلك الشخصية، كذلك التي جاءت بعض الأخبار والأقوال عنها في كتب التراث ففي كتاب "البخلاء" للجاحظ، يذكر على لسان أحد المكنين [المحتالين على الرزق بالتسول، وهي طائفة لها نواترها وأشعارها وأخبارها في التراث]. أنه لو ذهب ماله لجلس قاصدا.. فالحمية وافرة ببضاء، والخلق جهير "على الصوت سلهم النطق" والسمت حسن "حسن الهيئة والمظهر" والقبول على واقع "عنده قبول وحضور كما يقال عن الممثل" أن سألت عيني النعم أجابت "قدرة على التقمص والتمثيل".. ثم يضيف الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، أن من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى، ويكون شيخا،

بعيد مدى الصوت، ويرى عالم آخر أن القاص الأعمى أحسن من المبصر، حتى لا تقع عينه على مستحبات النساء، اللاتي يحضرن مجلسه أو يتحلقن حوله، ويحدد آخرون الهيئة التقليدية للقاص بإطالة اللحية وعظم المعامة، ليزيد من وقار نفسه في أعين من يحضر مجلسه.. وينقل ابن الجوزي في كتابه عن "القصاص والمذكرين" عن أبي الوفاء بن عقيل أن على القصاص أن يلبس متوسط الثياب، لكي يقتدى به، فلكل قول زى، "وكما لا يحسن الغناء إلا من الجوارى الخرد، ولا الغزل إلا من عاشق، ولا النوح إلا من ثاكل، ولا ذكر الأوطان إلا من غريب، فكذلك لا يقبل الوعظ إلا من متكشف مترهد متورع، من وراء مدرعة صوف، ونحافة جسم، وقلة قوت، اشتغالا عن البدن بغضائل النفس. كالطبيب الظاهر الحمية، فأما من يخرج بطينا فاخر الثياب، مداخل للسلطين، فكيف تستجيب له القلوب؟ إنما يسمع من السمار، ولربما كانت الصور والسمات المظهر والهيئة" تؤثر أكثر من الألفاظ، وقد قيل: "من لم تنفك رويته لا تنفك موعظته".. ويحذر من اللفات الحسنة، والاثيان بالحركات والإشارات الأنيقة، لأنه "متى كان القاص أو الواعظ شابا متزينا للنساء في ثيابه وهيئته، كثير الأشعار والحركات والإشارات، ويجلس مجلسه النساء فيحذر منه، وهذا منكر يجب منعه، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح، ولا ينبغي أن يعظ إلا من ظاهر الورع وهيئته السكنية والوقار، وزيه زى الصالحين".



لقد تحولت صورة القاص "الواعظ والمذكر"، كما تحول مجلسه،

عندما أصبح القاص وجمهوره من العامة، فلم يكن يميز واعظ العامة عن جمهوره إلا قليل من العلم الديني، وكثير من المرويات الشفاهية الشعبية عن الأنبياء والأولياء والمتصوفة. ويسرد الدكتور محمد رجب النجار في كتابه المهم "التراث القصصي في الأدب العربي" استناداً إلى مصادر تراثية وخاصة ما كتبه ابن الجوزي في كتابه "القصص والمذكرين" يسرد تفاصيل ما حدث لشخصية القاص وللمجالس القصص الدينية الشعبية، من تغيرات جعلتها تقترب من حلقات الفرجة المسرحية التي عرفتتها مجتمعات عربية كثيرة، حتى عهد قريب جداً، مثلما كان يحدث في موالد وأسواق المغرب العربي.

فمع بروز ظاهرة قصص العامة في العصر المملوكي، شرع العوام في تزيين المنبر الذي كان يجلس عليه القاص بالخرق الملونة، وذلك لإضفاء جو خاص على المكان، هو جو الحزن، والخشوع، والتخويف والتحذير، بحيث يكون الجو مناسباً لما يقصه القاص من قصص ديني يدور حول هذه الموضوعات، وعندما استنكر الفقهاء عملية تزيين المنبر، نزل القصص عنه وجلسوا على كراسي خاصة معدة لهم، وأطلق على هؤلاء القصص لقب "أصحاب الكراسي" ولم يتخل القاص أو جمهوره عن صنع ديكور خاص، بقدر ما سمح به خيالهم، فعلقوا خلف كراسي القاص سجادة صلاة مرسوم عليها صورة للكعبة، أو المسجد النبوي وهذا من جنس ستر الجدران بالاثواب، فيوجب في القلوب هيئة للقاتل أكثر من هيئة من هو على خشبة معرأة (عارية من الزينة).

وكان القاص يقوم في البداية بما يشبه عملية الاندماج المسرحي، عن طريق الصمت الطويل، وتقمص حالة الخاشع الزاهد العابد، ويقدر قناعة الجمهور بصدق اندماج القاص، بقدر نجاحه في الوصول إلى وجدانهم، ولم يكن الأمر يخلو بالطبع من المتصنعين، اللذين يصف ابن الجوزي أحدهم بأنه "كان إذا صعد المنبر، غطى وجهه وارتمد إلى أن يفرغ القراء من قراءة القرآن الكريم، ويفعل هذا دائما تصنعا".

وكان المجلس يبدأ بصعود القاص إلى المنبر أو الكرسي، فيبدأ مساعده من قراء القرآن الكريم في تحضير الجمهور، بقراءات يصفها ابن الجوزي بالألحان الخارجة عن الحد المألوف، وقد جعلوها كالغناء، الذي يوقع عليه وبه كأنه هداء أو عشاء، وقد أنكر الفقهاء عليهم هذه الطريقة في القراءة لأنها تطري وتهيج الطباع" ورغم استنكار الفقهاء لهذه الطريقة في قراءة القرآن، إلا أن العامة كانوا يستجيبون لها، ويفتنون بها، وتستثير فيهم عواطفهم الدينية. لقد كانت تلك الطريقة هي الشائعة والسائدة في مجالس القصاص، ويشارك فيها عدد من القراء في صوت واحد، وكانهم "كورس" يمدد الجمهور لسماع ما سيقوله القاص. فإذا ما انتهى القراء من الترتيل الجماعي، بدأ القاص يظهر، ليندق مجلسه، ويعتليه صعودا ونزولا، موقعا بقدمه، فإذا ما بدأ بعد حمد الله والدعاء للمؤمنين في سرد قصصه الديني بطريقة أدائية مؤثرة، فيرفع صوته حيناً، ويخفضه حيناً، ويلون أدائه للكلمات حسب معانيها، ثم يندمج أكثر فتحمر عيناه، ويشتد هياجه، وكأنه منذر جيش يقول: "صبحكم أو مساءكم" ومع ارتفاع

صوته واشتداد غضبه، يبدأ في البكاء كمظهر من مظاهر الزهد الذي يملأ قلوب المتعبدين.. وقد يستعين بما يضيف على وجه الأصفرار، أو يستخدم بعض الحيل التي تساعد على البكاء. أو يستخدم سيفاً أو عصاً لتجسيد ما يقول وتعميق معناه عند المستمعين، وقد يتحرك بعض الحركات التي تناسب ما يلقيه من أسجاع أو أشعار فيطرب الجمهور أى طرب، ويعمد إلى تشاد أشعار الغزل مع تصفيق يديه وإيقاع برجله، حتى إذا أراد أن يضحك جمهوره أضحكهم، وإذا أراد أن يبكيهم أبكاها!

وكان بعض النابغين من هؤلاء القصاص يتقلون بين المدن والأقاليم الإسلامية يعرضون مواهبهم، كما يفعل الشعراء مقابل منح وهدايا عظيمة، تتراوح كما يقدرها ابن الجوزى بين ألف دينار وسبعة آلاف دينار.. وقد كثر هذا النوع من القصاص في القرن السادس الهجري، وهو القرن الذي عاش فيه ابن الجوزى، للذي يقول انهم جعلوا القصص معاشاً يستلحون به الأمراء والظلمة والأخذ من أصحاب المكوس (الضرائب والجمارك) والتكسب في البلدان.

أما قصاص العامة، فقد كانوا بالطبع يحصلون على رزقهم من جمهورهم، ويقتسم ما يجمعه من جمهوره الفقير مع القراء الذين يساعدونه بتلاوتهم التي تمهد لقصصه.

لقد وافق فقهاء وعلماء القرن السادس، وما بعده، من هذه الظاهرة الإنسانية المأساوية الجماعية، بحق، كما يصفها الدكتور النجار، موافقاً لم يتعد الظاهر والخارج، فلم يروا فيها إلا بدعة تسببت في اختلاط النساء بالرجال، ولم ينفذوا إلى ما وراء

---

الظاهر إلى الأسباب السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي جعلت "العامة" من الرجال والنساء ينشدون السلوى في هذه المجالس، وجعلتهم يمزجون بين تقاليدهم الشعبية وبين القيم الدينية، وبين فنونهم المبتكرة والمتجاذلة، والتي ينظر إليها الخاصة من عل، وبين هذه المجالس القصصية الدينية التي تتيح لهم تنفيساً أسبوعياً أو نصف أسبوعى عن توتراتهم وإحباطاتهم، ولا تزال تلك الظاهرة مستمرة في عصرنا، بصورة أو أخرى، في حلقات الذكر الصوفى، أو الزار، أو احتفالات الموالد وهو الأمر الذى لفت أنظار بعض الباحثين في العلوم الإنسانية لدراسة هذه الظاهرة للوصول إلى أسبابها العميقة، التي لا تجدى في منعها الأوامر الفقهيّة، أو الإدارية وحدها!





---

## القصص الديني الإسلامي والسياسة

يقول بعض المؤرخين القدامى أن أول من وضع القصص في الإسلام هم "الحرورية" من الخوارج، بمعنى أنهم أول من بدل القصص الديني، وزاد فيه، لتأييد وجهة نظرهم الدينية والفكرية، وهو موقف مفهوم في ظل الصراع الفكري والديني المأساوي الذي اندلع بين أنصار الإمام علي وأنصار معاوية بن أبي سفيان، فيما عرف في التاريخ الإسلامي بـ "الفتنة الكبرى" والذي انتهى بسيطرة الأمويين على الحكم، وهزيمة شيعة علي، وخروج الحرورية الخوارج على الجميع.

وقد أدرك الخليفة معاوية مبكراً السحر الإعلامي للقصص الديني، وقوة تأثيره في نفوس العامة فبعث في طلب الفصاح، وجمعهم إليه، وأجرى عليهم الرواتب من بيت المال، ثم أوعز إلى قصاصيه، وقد أصبحوا موظفين في الدولة، في مصر والشام

بالدعاء له بعد صلاة الصبح والعشاء، فكان القصص يجلس بعد انتهاء الإمام من صلاة الصبح، فيذكر الله ويحمده، ويصلي على نبيه، ثم يدعو للخليفة ولأهله وجنوده بالنصر والتأييد، ويدعو على من يحاربه وعلى الكفار عامة<sup>١</sup>. وكان بعض القصص يستخدم يديه في تأكيد وشرح ما يقصه، ومن هؤلاء سليم بن عزي الذي عين كاول قاص بمصر عام ٣٨ هـ.

وبهذا اتقسم القصص الديني الإسلامي إلى قصص يؤلفه الخاصة لأداء وظيفة سياسية وإعلامية لصالح الحكم القائم، وقصص يرويها قصاص العامة للوعظ والتعليم حسبة لوجه الله واحتسابا. أما قصص الخاصة فكان يحصل على راتبه الرسمي من بيت المال، ثم ظهر نوع ثالث من القصص. بعد القرن الهجري الأول. كالحسن البصري وأبي عبد الله الجوني، ومطرف بن عبد الله، وصالح المري. لقد أعاد هؤلاء القصص الورعون للقصص الديني وظيفته للتذكيرية والتحذيرية، بعد أن هالهم ما أدى إليه الصراع السياسي بين الفرق الإسلامية من مأس وخروج عن الدين الصحيح، وأخذ بهم الخوف من الذنوب الجمعية إلى الرفض المزير للحال الإسلامي العام ويصف الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" بعض هؤلاء القصص كصالح المري بأنه لم يكن قاصا، بل كان نثير قوم، كما يصف مجلسه: بأنه كان إذا أخذ في القص بدا وكأنه رجل مذعور، يفرعك امره من حزنه وكثرة بكائه، كأنه تكلي!

وفي العصر العباسي، ومع ظهور الصراع العربي الفارسي، اضابت القصص الفرس إلى القصص الديني الإسلامي، الكثير

من الأساطير والخرافات الفارسية والأحاديث الكاذبة. وينكر الجاحظ براعتهم في القصص، وكيف كانوا يقصون بالعربية والفارسية معا في المجلس الواحد فيفهم عنهم العربي والفارسي، ومع الازدهار الحضاري وما صاحبه من ترف مادي تمتع به الخلفاء والأمراء ومن عاش حولهم من العلماء والأدباء من فرس وعرب في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ومع الثروات الكبيرة التي تدفقت على تجار العاصمة بغداد والحواضر الأخرى، وازدياد شفاء غالبية المسلمين ومعاناتهم في حياتهم اليومية، وما صاحب هذه المعاناة ونتج عنها من هبات وثورات للامة والفقراء، انعكس كل ذلك على القصص الدينية في الطرقات والمساجد والأسواق، وظهر ما عرف بقصص الزهد وأشعار الزهاد والمتسككين من المتصوفة والزهاد، وقد تبلور هذا التيار الزهدي في البصرة أكبر ميناء تجاري في العالم آنذاك. وفاد هذا التيار الزهدي حجة الإسلام الغزالي، ومالك بن دينار الذي كان شعاره: "كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة!". وفي القرنين الرابع والخامس الهجريين فتح باب التأليف في القصص الديني الإسلامي على مصراعيه لتدخل منه الاسرائيليات بدون حواجز بصاحبها أخبار وقصص منسوبة للجاهلية وللأمم القديمة وأحاديث وخرافات الشعوب المجاورة، لينسج من هذا كله جنة أخرى تقوم بدور التعويض للبائسين عن شظف حياتهم، وحرمانهم من ضرورات الحياة، جنة يصنعها خيال القصاص لإشباع حرمان جمهورهم الجنسي والمادي، لا علاقة لها بالجنة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وفي

الأحاديث النبوية الصحيحة، ولكنها مستمدة بخیال مبالغ فيه إلى حد الهوس، مما يسمعه ويراه العامة من ترف الأغنياء السفیه، ومتعمهم الحسنة بالنساء والخمر والطعام، ومن حرمان العامة من كل هذه النعم الدنیویة.

وكان من الطبيعي أن يستجيب العامة لهذه القصص الخيالية وأن ينشغلوا بها ويقائلوها نشغالا عظيما، وهو الأمر الذي استفز الفقهاء والمخلصين من علماء الدين، فشقوا على القصص وجمهورهم حملات شعواء، وجعلوا الخلفاء يصدرن مراسيم متعددة تنهى عن حضور القصص، وتولى المحتشمون مراقبة القصص في المساجد والأسواق والطرق باعتبارهم من "أصحاب الصنائع الفاسدة، الذين أفسدوا على الناس حياتهم" ولعل في تحول موقف الإمام أحمد بن حنبل من القصص والقصص ما يلقي الضوء على أثر القصص الجماهيري في ذلك الوقت، فقد كان ابن حنبل في البداية يرى أن الناس في أمس الحاجة إلى القاص الصدوق، فأصبح يراهم من أكذب الناس، وأن غايتهم هي نهب أموال الناس بالباطل، ويقسم ابن الجوزي موقف الفقهاء من القصص وذهمهم واستعداد الحكام عليهم، بأنهم ينحازون لذكر القصص دون ذكر العلم المفيد، ثم إنهم يخلطون فيما يأتون به من قصص وأحاديث، وأكثر ما يعتمدون عليه في قصصهم من المحال. ويضرب الدكتور محمد رجب النجار مثلا على ما جاء به القصص في ذلك العصر في موضوعين كانا أثيرين عندهم، هما قصة الإسراء والمعراج، والثاني هو مرويَات الشيعة عن آل البيت رضوان الله عليهم. فقد وجد القصص في

---

قصة الإسراء والمعراج مجالا خصبا لخيالاتهم حتى قال الإمام الذهبي فيه: "إنه أصبح أشبه بأحاديث القصص" وليس مجرد معجزة نبوية محددة الملامح في القرآن والسنة. أما مرويات الشيعة عن آل البيت، وخاصة فيما يتصل بمقتل الإمام الحسين رضوان الله عليه، فقد لعب خيالهم المشوب بالماطفة المشيوبة دورا هائلا في التأليف القصصي الخيالي على حساب الوقائع التاريخية حتى "اختفى الأصل وأضيف إليه من مبالغات لعب الحب المفرط لآل البيت والخيال فيها دورا لا يمكن تصديقه".



## القصص الديني بين العامة والخاصة

يصف ابن جبير في رحلته مجلساً من مجالس ابن الجوزي القصصية الوعظية، بأنه كان أثناء هذه المجالس ينشد من أشعار النسب، مبرحة التشويق، بديعة الترفيق، تشعل القلوب وجداً، ويعود موضوعها زهداً، وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، وأصابته العقائل سهام ذلك الكلام! أين فؤادي لذابه السوجد وابن قلبي، فما صبحي بعد؟ يا سعد زندي جوي بذكرهم بالله قل لي، فديت يا سعد! ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه، إلى أن خاف الانحدام، فابتكر القيام، ونزل عن المنبر دهشاً عجلًا، وقد إبطر القلوب وجلاً، وترك الناس على أحر من الجمر، يشيعونه بالمدامع الحمر، فمن أعلن بالانتداب، ومن متعطر بالترايب، ويعلق الدكتور التجار على

وصف ابن جبير بقوله: "لما بالنّا بقصاص العامة الذين تجاهلهم التاريخ، وكانوا أقرب إلى العامة، لغة ومزاجاً وفكراً وسلوكاً وإبداعاً؟ لقد كان قصص العامة نقیضاً لقصص الخاصة، فقد كانت قصص الخاصة يؤديها قصاص رسميون هم جزء من الجهاز الإعلامي والفكري للحكم، وكان جمهورهم هم الفقهاء ورجال الدولة، وكانت قصصهم بالتأكيد لدعم مواقف الحكام وتبرير سياساتهم، فقد كان الفن القصصي فيها يحتل مكانة هامشية، لأن الهدف ليس الامتاع الفني ولكن التفسير والتبرير الوعظي لسياسة الحكم، أما قصص العامة فقد اعتبرها الفقهاء من البدع المكروهة لمن يقولها ومن يستمع إليها، وقصاص العامة كان يمارس وظيفته دون إذن من الأمير، فلا هو أمير ولا يقص بأمر من الأمير، ولكنه يحتال بالقصاص من أجل العيش، فهو إلى المكنين "المشولين" أقرب منه إلى القصاص والوعاظ الرسميين، أما جمهوره فهو من عامة الناس دائماً.

ولكن قصص العامة هذه، كما تقول الدكتورة ودیعة طه النجم هي في الحق أقرب الصنفين إلى القصص الفني الذي نعتي بدراسته من الناحية الأدبية، لأنها قد تميزت بأعاجيبها وأخيلتها التي ترضى مستوى الخيال الطليق الذي يتمتع به العامة، والذي لا تحده حاجة معينة، ولا منطق عقلي في كثير من الأحيان.. وقد لا نفوت الصواب إذا قلنا أن هذا القصص قصص العامة هو الذي مهد السبيل إلى استقلال القصة شيئاً فشيئاً عن المجال الديني أو العلمي، فجعلها تقوم بنفسها، وتنتقل (شفاهاً) ثم تكون على أيدي مؤلفين قاموا بتكوينها (كتابة) كالذين سجلوا لنا ألف

ليلة وليلة، أو السير والملاحم الشعبية، التي تمتاز بالخيال الخصب الذي لا يرتبط إلا قليلا، بالواقع، كما أن قصص العامة الديني هو الذي مهد لظهور فن فريد في الأدب العربي هو فن المقامة.

فالقصاصون الذين اهتموا بالوعظ الديني في بداية الأمر، ما لبثوا أن صاروا ينقلون إلى مجالسهم، القصص الشعبي، فكان بعضهم يثير عواطف الناس بسرد قصص البطولة أو قصص الحب الشائعة على السنة الرواة، ويلبسها بالغاية الوعظية أحيانا، وقد نهى ابن الجوزي القصاص عن ذكر قصص الحب والعشق الدنيوي، وقصص سعدى ولبنى في العشق الصوفي، وقصة موسى والجب، وقصة يوسف وزليخا، على سبيل المثال، كما نهى عن قيام القصاص بالتشخيص والغناء أو تلحين القرآن، أو إيراد النوازل الفكاهية، وغيرها مما كان يلجأ إليه القصاص من فنون السرد التي يرقهون بها عن العامة في مجالسهم القصصية. لكن هذه النواهي والأوامر ذهبت إدراج الرياح، فقد كانت مكانة القصاص، وخاصة الموهوبين منهم، عند جمهورهم أقوى وأشد تأثيرا من نواهي الوعاظ والفقهاء الرسميين، ومن مراسيم الحكام، ورقابة المحتشمين، لقد اختلط في مجالس الوعاظ والمذكرين الشعبيين الذين بالفن، لتصبح بعض هذه المجالس أقرب إلى بعض أنواع العروض المسرحي، في زماننا وخاصة بعد انصراف الخاصة عن هذه المجالس وتركها لجهال القصاص، على حد تعبير ابن الجوزي، فلم يعد يحضرها إلا "العوام والنساء" أي أنها قد خرجت من رقابة أهل الحكم والفقهاء



والرسميين، ولم تلتزم بتعليماتهم التي تطلب أن يضرب بين الرجال والنساء الذين يحضرون مجالس الوعظ القصصى حجاباً، وأن يجعل لهم الواعظ من وعظه نصيباً فيعطون ويخولفون من تضییع حق الزوج ومن التفريط فی الصلاة، وينهاهن عن التبرج والخروج، ويذكر لهن ما ورد فی ذلك من أحاديث.. كما حذر الفقهاء أيضاً من أن يمتنع القصاص أكثر مجلسه فی ذكر العشق والمحبة وأنشاد أشعار الغزل التي یحتوی علی وصف المعشوق وجماله، وشكوى ألم الفراق، مما یعنى أن هذا كان يحدث ولذلك نهى الفقهاء عنه، كما یعنى أن هذه المجالس القصصية الشعبية قد أصبح لها تقالیدها الدينية والفنية الخاصة، التي أمانتها الاحتياجات النفسية والفكرية لعامة الناس، الذين لم یعبأوا بتعالی الوعاظ الرسمیین علیهم، ومضوا إلى ما یرغبون ویريدون من الوعظ والقص الدينى، كما يفهمونه، ويعبر ابن الجوزی عن نظریته الخاصة من العلماء والوعاظ الرسمیین إلى هذه المجالس الوعظية الشعبية، بقوله: "ومعلوم أن عامة الحاضرين اجلائ، بواطنهم مشوة بالهوى ممثلة بحب الصور، ولا تخلو المجالس من النساء المستحسنات، ومثل هذا یحرك ما فی النفوس، فإن كان القاص شاباً مستحسناً قليل الدين وقع الحديث معه".

لم ینشغل الفقهاء إلا بأمر حضور النساء مع الرجال، ولم ینفوا إلى ما یعنيه هذا الاقبال الهستیری علی مجالس الوعظ الشعبية، من تنفیس وتعويض عن الإحباط الاقتصادي والسیاسي والاجتماعي لقد كانت تلك المجالس تتحول إلى ما یشبه حلقات

---

الذراويش المتصوفة، أو حفلات الزار في بعض البلاد العربية،  
ومن يقرأ وصف ابن الجوزي لهذه المجالس، لا يد وان تستوقفه  
هذه الظاهرة التي تحتاج تحليلًا اجتماعيًا ونفسيًا.. فقد كانت  
بعض النساء من الحاضرات تصبح كصياح الحامل عند الولادة!  
وربما رمت أزارها وقامت وقد انتابها الوجد مع استفاثة الرجال  
ممن يصل إلى حالة الوجد، وعندئذ يحدث الهرج والمرج في  
المجلس، كلما زادهم الواعظ من جرعة التخويف وتصوير  
العقاب، مما يوجب التلف في قلوب الجمهور.



(٥)

الرؤية الشعبية للسيرة النبوية

لم تحفظ لنا كتب السيرة الكثير من التفاصيل عن حياة النبي عليه الصلاة والسلام قبل نزول الوحي، وإن كان القرآن الكريم قد رسم الخطوط العامة لشخصيته النبوية كرسول لله وخاتم النبيين، بحث بين العرب بلسانهم، لينذرهم ويذكهم، ولتخرج رسالته من المحيط العربي إلى العالم كافة. يخاطب الله نبيه بقوله: "لم يذكك يتيما فأوى.. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى" وسيضيف كتاب السيرة والمؤرخون والخيال الشعبي الكثير من الملامح والتفاصيل الغنية، التي تجسد تلك العلاقة المقدسة والخاصة بين المسلمين ونبيهم العظيم، وستتلمس بعض هذه الإضافات إلى عالم التاريخ وحققته ووقائعها، وستتلمس بعضها الآخر إلى عالم الأدب والموروث الإنساني الشعبي. وسيختلف الباحثون حول هذه الإضافات القصصية، يحاكمها البعض بمقاييس مناهج المؤرخين الحديثة، وطرق أصحاب الفقه والحديث، التي وإن كانت صالحة لتنظيم حياة المسلمين في دنياهم ودينهم، إلا أنها غير قادرة على استيعاب أشواق المسلمين، على اختلاف أجيالهم وأزمانهم، ورؤاهم الثقافية، لشخصية النبي العظيم.

لقد حرر كثير من القصاص، والمتصوفة، والشعراء والفنانون الشعبيون، خيالهم الخصب من أوامر ونواهي الفقهاء

---

والمؤرخين، الملتزمين بالحقائق الجافة، والتفسيرات الملتصقة بالظاهر والمفتقدة لغنى الخيال الإنساني، وضرورته للحياة الروحية والنفسية للمسلمين، ورغبتهم المشروعة فى التوحد مع شخصية نبهم من خلال موروثهم الشعبى، وخيالهم الفنى، كرمز للخير الأسنى والمثل الأعلى.

وتعكس الصياغة الشعبية للسيرة النبوية الكثير من هذه الروى والأسواق الروحية والفنية، وقد اكتملت هذه السير النبوية الشعبية فى زمن متأخر ولكنها أصبحت ومنذ ذلك الوقت، جزءاً من الموروث الدنى الشعبى للمسلمين، رغم أن بعض الباحثين وعلماء الدين رأوا أنها قد حشيت بقصص ضعيفة السند، لا تصور المعروف من مولد الرسول وحياته فى صورته الصحيحة، كما يقول الدكتور زكى مبارك فى كتابه عن "المدائح النبوية". وقد حدث أن دعا وزير الأوقاف المصرى محمد نجيب الغرابلى أهل العلم الى وضع صيغة جديدة للمولد، يراعى فيها تحرى الاخبار الصحيحة. وقد قوبلت دعوة وزير الأوقاف هذه، بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية الرسمية، ولكن الدكتور طه حسين تصدى لهذه الآراء، رغم ما فى هذا الموقف من حساسية، فتم نشر مقالاً فى جريدة "الوادي" ١٩٣٤/٨/١ كتب فيه ضمن ما كتب: "وأى بأس على المسلمين فى أن يتحدث إليهم قصص كهذه الأحاديث الحلوة العذاب، فتنبهم بأن أسم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبي كلها يريد أن يكفله، ولكنها ردت عن هذا، لأن القضاء سبق بأن رضاع النبي سيكون الى حليلة المسعدة؟" وأى بأس على المسلمين فى أى يسموا أن

الإنس والجن والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبي، وأن الشجر أورق لمولده، وأن الروض ازدهى لمقدمه، وأن السماء دنت من الأرض حين من الأرض جسمه الكريم؟ لم تصح الأحاديث بشيء من هذا، ولكن الناس يحبون أن يسمعوا هذا، ويرون في التحدث به والاستماع إليه تمجيذا للنبي الكريم، لا بأس به ولا جناح فيه. إن من فاحش الخطأ أن يضيق على الجماهير حتى في القصص البريء، إن من فساد الذوق ألا يباح للجماعات إلا الحق الذي لا حظ للخيال فيه، إن من سوء العناية بالدين أن يكف الخيال عن تأييد الدين".

وتعلق الدكتورة نبيلة إبراهيم في دراستها عن "السيرة النبوية بين التاريخ والتراث الشعبي" على رأى عميد الأدب العربى حول علاقة الخيال الشعبى بالدين والتاريخ، بأنه لو كانت الهيئات الدينية والأدبية الرسمية قد استجابت لدعوة وزير الأوقاف وألفت نص للسيرة ملتزم بالتاريخ والواقع ما التزم به الشعب، فالخيال بالنسبة للحياة الشعبية هو جوهر إبداعها الفنى، وهو يوظف على نحو رائع للتعبير عن مناعها النفسية وطموحاتها الاجتماعية وانبهاراتها الدينية.

إن تلك الأناصيص التى ترد فى الروايات الشعبية للسيرة النبوية، والتى تجسد رد الفعل التخيلى للجماعة الشعبية لطبيعة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، هى من وجه آخر، تأكيد ليقين تلك الجماعة الشعبية المسلمة أنه هو من نالت إليه الأمم، وترقب الأحكام من أهل الكذاب مقدمه النبيل. لقد تعددت الروايات التى ..

---

إلى قومه. ومنها تلك الرواية التي نقلها ابن هشام في السيرة عن  
ابن اسحق، والتي تلخص قصة ذلك الحبر اليهودي الورع الذي  
ترك سوريا نازحا إلى يثرب المدينة، وعندما سئل عن سبب  
تركه لأرض الخصب والغنى إلى أرض الصعاب والجوع؟  
أجابهم بأنه يريد أن يكون في يثرب عندما يصل إليها محمد  
مهاجرا برسالته!



## السيرة النبوية والسيرة الشعبية

للتراث الشعبي قوانينه الإبداعية الضاربة في جذور التاريخ الإنساني، حيث بدايات الإبداع الجمعي، عندما كانت النفس والإيقاع والكلمة فناً واحداً يعكس تصورات الجماعة الشعبية عن الكون والحياة والتاريخ، عبر أشكال فنية تنوعت وتطورت من ذلك الأصل القديم، فأصبحت: أسطورة أمثلة حكاية سيرة ملحمة أو أغنية تحمل أصداً من هذا كله على المستويين الفكري والموسيقى.. وهو ما يشير إليه الدكتور عبد الحميد يونس في مقدمة كتابه "الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي" بقوله: "ولعل من المفيد ونحن نتحدث عن الأدب الشعبي ودلالته على نفسية الجماعة، أن نستعيد نظرية الاسترجاع التي يقول بها علماء الحياة فالإنسان وهو تاج الخليقة، يحكى في نشأته ونموه وتدرج حياته، نشأة الحياة كلها على اختلاف صورها



ونموها وتدرجها، والشعب الحي أو الجماعة الحية تختزن جميع  
الأطوار التي مرت بها خلال العصور والأحقاب، وما من أثر  
من آثار التراث الشعبي إلا وجدنا فيه رواسب نفسية واعلة في  
القدم، تعود إلى عهد العشاائر البدائية في العصر الحجري وما  
قبله، وهو إلى جانب الروايات العملية في الآثار والنقوش،  
أصدق في الدلالة على نفسية الشعب من الوثائق والأضابير  
وروايات الأخباريين وأصحاب الحوليات والتواريخ،  
وشخصية النبي محمد عليه الصلاة والسلام أبرز شخصية  
أساسية في الأدب الشعبية العربية، فهي البويرة النورانية  
المباركة التي يلتقى عندها العديد من فنون الأدب الشعبي، من  
سيرة، ومناخ، وأنشادات دينية، إلى أغاني الحجيج والعمل  
والغزل، إلى الحكايات والقصص. وإذا كان هناك شبه إجماع  
الآن بين علماء التراث الشعبي العربي، على أن السير الشعبية  
العربية تكاملت وتم تكوينها في مصر، بعد تعريب مصر  
وتمصير عربها، في القرنين الخامس والسادس الهجريين،  
الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.. فإن هذه السيرة الشعبية  
هي في جوهرها تسجيل لصورة بطل يجمد المثل الأعلى  
العربي، حيث يمتزج فيه الماثور التاريخي بالماثور الشعبي، كما  
يمتزج فيه الواقع بالحلم والأبطورة، حتى قيل: "إن السيرة  
الشعبية هي التاريخ ينشد على أبواب الأسطورة". وتستمد  
السيرة الشعبية تقاليدها الأولى من "المغازي" وهي الحروب التي  
خاضها الرسول وأصحابه، والتي شكلت روايتها وتدوينها السير  
الأولى، بعد أن عرفت الثقافة العربية الإسلامية تكوين مختلف

مجالات المعرفة في نهاية القرن الثاني الهجري الثامن  
الميلادي.

فالسيرة إذن في تراثنا الرسمي ترتبط بالترجمة الماثورة  
للنبي (سيرة ابن اسحق التي دونها ابن هشام) باعتباره البطل  
العربي الأعلى، دينيا وقوميا وعسكريا، والذي تمتد سيرته من  
حيث المساحة الزمنية إلى ما قبل النبوة، ثم البعثة، ثم الدعوة  
والغزوات والحروب، ثم النصر، إلى نبوءة الوفاة، والوفاة ذاتها،  
ثم الامتداد إلى ما بعد الوفاة واستقرار الدعوة الإسلامية " .  
والسيرة بهذا المعنى باعتبارها أول سيرة في التراث العربي  
تستهدف رسم المثال والنموذج القومي (الرسول الأعظم) دينيا  
وعربيا وعسكريا وأخلاقيا.

لقد استعار الإبداع الشعبي مصطلح "السيرة" بكل دلالاته من  
السيرة لنبوية، باعتباره وعاء لتسجيل نموذج تاريخي بطولي  
"يتغنى بسيرة النبي عليه السلام، باعتباره نبي الأنبياء، وبطل  
الأبطال" وفي هذا الإطار نفهم حرص مؤدي السيرة الشعبية في  
بدايات إنشادهم الشعري، على مدح النبي عليه الصلاة والسلام،  
والإتمادة بصفاته العظيمة وبأهل بيته، ومعجزاته وبطولاته،  
كمثل بطولي أعلى، ومؤدى السيرة الشعبية يسوق هذا المديح في  
مفتاح إنشاده، لا بطريقة روتينية يكرر فيها الكلمات والمعارف،  
ولكن بطريقة مبتكرة ومتجددة كل مرة، وهذه البدايات هي جزء  
من السرد الشعري والنثري في السيرة، فهو يقيس الأحداث  
والوقائع والبطولات والمعارك والمواقف الأخلاقية، على  
مرجعياتها الأساسية، التي يؤمن بها الشاعر المنشد والجمهور

المتلقى معا، وهى السيرة النبوية.. ولتأكيد هذه المرجعية توجد السيرة الشعبية صلات بين أبطالها وبين النبي عليه الصلاة والسلام، متجاهلة الحقائق التاريخية، فالتاريخ فى الوعي الشعبى الجماعى ليس وقائع صماء منفصلة، لكنه مسيرة متصلة، لا يحكمها التسلسل والتتابع فى الزمان والمكان، ولكن يحكمها اتصال المعانى والدلالات والرسائل التى يريد المبدع الشعبى توصيلها لجمهوره، الذى شاركه عبر اعقاب طويلة فى صياغة هذه السير الشعبية. ففى "سيرة عنترة" وهى أقدم السير الشعبية التى وصلتنا، يفسر المؤلف المجهول الواقعة تعليق "معلقة عنترة" داخل الكعبة تفسيراً مختلفاً عن تفسيرات كتب التاريخ والأدب، ويخبرنا راوى السيرة أنه بعد أن انتزع عنترة الاعتراف ببطلوته الجسدية وفروسيته، شارك فى مباراة شعرية لانتزاع الاعتراف به كشاعر، لتكتمل صورته كفارس وشاعر، وهما وجهها للبطلونة، كما كان العرب يفهمونها.. وتجسّد السيرة يتحدث إلى الشاعر الجاهلى عروة بن الورد الصعلوك الشهير، بقول عنترة عن نفسه: "من يكون هذا المقال مقال، وهذا القتال قتال، ما يصح إلا أن يعلق له قصيدة على جدران البيت الحرام، ويفخر بها الخاص والعام".

ويكون تعليق قصيدة على جدران الكعبة أحد علامات ظهور النبي محمد عليه الصلاة والسلام.. وتحكى السيرة أن عنترة وهو فى مجلس بين الشعراء والفارس، رأى رجلاً يجرى قائداً نحوهم، وأخبرهم الرجل أنه قائم من البيت الحرام، وأنه سمع عبد المطلب جد النبي يعط أهل مكة ويخبرهم أن زمان

النبي قد اهل لآله عبد المطلب قد رأى مناما، كانه واقف  
قدام "هيل" اشهر اصنام الجاهلية وهو الصنم الأكبر الذي على  
الركن اليماني، وكأنه سأل عن الرجل الروحاني (النبي) متى  
يكون ظهوره؟

فقال هيل: إذا ألتعت نخلة يثرب، ووقع الجوع والغلاء في بلاد  
المغرب، وانشق ليوان كسرى وخرب، وعلق قصيدته فارس بنى  
عيس الأدهم، ولجل سفك الدماء في الحرم، وخولت له رقاب  
الفرسان من العرب والعجم". وفي "سيرة سيف بن ذي يزن"  
وهو شخصية تاريخية عاشت قبل الإسلام، يصل مؤلفو السيرة  
الصلة بينه وبين النبي محمد، عن طريق وزيره "يثرب" ولا  
يخفى ما في اختيار اسم الوزير من دلالة، فيثرب هي المدينة  
التي هاجر إليها النبي وأصحابه.. وفي السيرة الهلالية يتصل  
نسب بطلها الأسامي أبي زيد الهلالي بالنبي عليه الصلاة  
والسلام، من خلال لم أبي زيد "خضرة الشريفة" وفي "سيرة ذات  
الهمة" نجد أن أبرز صفات أحد أبطالها الأمير الصحصاح له  
"زائر لقبر النبي زين الملاح، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم  
ما انظمم الدجى وأثار الصباح".



---

## القصص الشعبي والمعجزات النبوية

نعكس قصص المعجزات النبوية التي صاغها الخيال الشعبي مدى تعلق الوجدان الجمعي بالخوارق والمعجزات ومحاولة تفسيرها وتعليلها بما يتكامل مع ما يحمله هذا الوجدان من موروثة قديمة، ويستهدف، هذا الوجدان من رواية قصص المعجزات وتدوينها والاستمتاع بسماعها أو قراءتها، تأكيد المعجزات النبوية، والاستجابة لدوافع أخلاقية واجتماعية من ناحية، والترويج لبعض الفرق الإسلامية سياسيا من ناحية أخرى.

وتسوق الدكتورة نبيلة إبراهيم في دراستها المهمة عن "السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي" التي أشرنا إليها، بعض القصص الشعبي الذي يروي لتأكيد هذه الأهداف الوجدانية والأخلاقية، والتي مازالت تروج بين العامة حتى الآن مثل:

قصة عامر اليهودى عابد الأصنام\* وقصة اليتيم المظلوم\*  
وقصة الغزلة والجمال\* وكل هذه القصص تنبع فى طبقات  
شعبية فى الاحتفالات الدينية والأسواق الشعبية.  
وتحكى قصة عامر اليهودى عابد الأصنام، عن هذا الرجل  
الذى كان له ابنة أصيبت بالشلل والجذام، وكان يتوسل للأصنام  
أن تشفيها، وبينما هو عاكف على عبادة صنمه ذات يوم، شاهد  
نورا ملا الاقاق، ثم كشف الله عن بصيرته فرأى الملائكة عند  
الكعبة. وقد اصطفت وراء الجبال المساجدة والأرض الهامدة،  
وسمع مناديا ينادى: قد ولد النبي الهادى، فسأل عن اسمه فأجابه  
حجر بان اسمه محمد المصطفى، فخرج هو زوجته ليذهبا إليه،  
فرأى ابنته تنقف سليمة معافاة، فسألها أبوها وهو فى ذهول تام  
عن شفائها فقالت له: أنها رأت نورا ملا ما بين السماء  
والأرض، وعم الوجود، فلما رأت شخصا أمامها يسطع النور  
من وجهه، سألت من هو؟ فقبل لها: أنه سيد ولد عدنان. وسألت  
عن اسمه، فقبل لها: محمد وأحمد، فسألت عن دينه، فقبل لها،  
دينه هو الإسلام، وهو قرشى يعبد الواحد القهار، فلما شكت  
لصاحب الصوت من داتها، قال لها: توسلى لله بجاهه فقد قال  
الرب القريب الدانى، انى قد أودعت الإنسان سرى ويرهائى، فلا  
أخيب من دعائى\* فبسطت يدها ودعت الله، ثم مسح بيدها على  
وجهها وجسدها، فاستيقظت من نومها صحيحة البدن. ورجل  
الأب والأم والابنة إلى مكة، وطرقوا بيت امية بنت وهب أم  
النبي، وسألوها عن المولود الذى نور الله به الوجود، فقالت لهم:  
انى أخاف عليه من اليهود، ولكن الرجل أخبرها أنه هو وعائلته

فارقوا وطنهم محبة فيه، فسمحت لهم برؤيته، وقبلوا قدميه، وسلموا العهد والأمانة، وبعد أن خرجوا عاد عامر ثانية ليرى الرسول، وقبل قدميه ثانية، ثم شقق شققة وعجل الله بروجه إلى الجنة.

وتعلق الدكتور نبيلة إبراهيم على هذه القصة الشعبية بقولها:

"فهذه القصة مع بساطتها استغلت عناصر كثيرة من السيرة النبوية، وهي تلك العناصر التي تحكى عن معجزات الرسول عليه السلام، فقد استغلت ما روى في السيرة من إيمان بعض المكابرين والمعادنين المفاجي بالدعوة، سواء كانوا من العرب أو اليهود، كما استغلت قصة النبوة التي رآها كسرى وغيره، ثم ذلك الخير الذي يحكى كيف أن الأحجار كانت تحي النبي عليه السلام قبل أن يهبط عليه الوحي، وتقول له: "السلام عليك يا رسول الله".

لما قصة اليتيم المظلوم، فقد أغنت استلهاها للآية القرآنية "لما اليتيم فلا تقهر" فهي تحكى أن النبي رأى وهو عائد من إحدى غزواته طفلاً صغيراً مسكيناً نائماً على الأرض وحوله أطفال يلعبون، فابقظه النبي وسأله عن عدم مشاركته الأطفال في لعبهم ولم يكن الطفل يعرف النبي، ولكنه أجابه بفصاحة شعرية أعجبت النبي فاستزاده منها، ثم عرف بنفسه، وعرض عليه أن يكون جده، ويكون الإمام على أباه، والسيدة فاطمة أمه، والحسن والحسين أخويه ففرح الصبي، وقدمه النبي إلى ابنته، فعاش في بيتها، وعندما خرج النبي في إحدى غزواته طلب أن ينضم إليه محارباً، فأخذه معه، وأصيب الصبي في تلك الغزوة بضربة قاتلة

---

ففسله الرسول عليه الصلاة والسلام وصلى عليه، ووراءه  
سبعون الفا من الملائكة.

وأما قصة الجمل والغزاة فهي من أكثر هذه القصص ترددا  
على لسان المنتهدين الشريرين، فهي مصاعبة شعراء، وتحكى عبر  
بناتها قصة جمل وغزاة ذهبا للنبي عليه الصلاة والسلام لكى  
يشكيا له من ظلم الإنسان، ويطلبيا منه الانتصار لهما "وإذا كانت  
هذه القصة فى عمومها تصوير الطبايع الإنسان وغبائه وقلة  
حيلته فى بعض الأحيان، فإنها هنا لا تؤدى هذا الغرض وحده،  
بل تؤدى غرضا آخر أهم وهو إثبات معجزة الرسول عليه  
الصلاة والسلام، فضلا عن الإشادة بأخلاقه السامية التى حرص  
على نشرها بين المسلمين وتبدأ القصة بمدح الرسول عليه  
الصلاة والسلام، فيقول زجلا:

فى أول القول مدحك يا نبي استفتاح  
يا من تسلم عليك الشمس كل صباح  
ما أحلى مدحك وما أخفه على المداح  
وأنسا إن مدحت النبي لم على جناح  
وثانى القول مدحك يا نبي مطلوب  
وكم من ضيقة وتفرجها على المكروب  
جت الغزاة ولبنها على الثرى مسكوب  
ضممتها يا حبيبي لما أوفت المكتوب  
وتحكى القصة للشعبية قصة غزاة أرادت أن ترضع أطفالها،  
فطلبت من صيادها أن يفك أسرها لتقوم بالمهمة وتعود إليه  
فرفض، فضمنها النبي وأوفت بعهدا ثم ينتقل القاص الشعبى



---

إلى قصة الجمل فيسردها ليعود إلى ربطها مع قصة الغزالة في  
تسبيح ولحد.

ثم يستمر الشاعر الشعبي فيسرد على لسان الجمل القصة،  
وكيف كان جملاً قويا، ثم إصابته بالمرض، فاعتنى به صاحبه  
قليلاً، ثم لما تأكد من شدة مرضه أهمله، وقطع عنه زاده، وخاف  
الجمل أن يذبح فذهب للنبي يستغيث به، ويذهب النبي والصحابه  
مع الجمل إلى صاحبه، الذي نعرف أنه قاسى القلب فقد اعتدى  
على جاريته ففقا عينها ولكن عينها تشفى بعد رؤيتها للنبي.  
ويرفض صاحب الجمل تصديق قصة نطق الجمل بالشكوى  
للنبي، ويطلب النبي من الجمل إعادة شكواه، فيفعل ويعلم  
اليهودى صاحب الجمل، ويتحرر الجمل من الذبح، وبذلك يؤكد  
القاص الشعبي بث القيم الأخلاقية من خلال المعجزات النبوية،  
وكما تقول الدكتورة نبيلة إبراهيم فى تعليقها على القصة "وإذا  
كانت مهمة الدعوة المحمدية هي إعادة النظام إلى الحياة وإلغاء  
فوضويتها من خلال تطبيق أسس الإسلام العادلة، فقد انتهت  
القصة، بتحرير المظلوم، وفك قيد الأسير، وخضوع الظالم  
للنظام الدينى العادل".



(٦)

سيرة النبی.. رؤية غربية



كارين لومسترونج كاتبة بريطانية وباحثة في تاريخ الأديان، عاشت فترة من حياتها كراهبة، ولكن الحياة في الدير كانت ضيق من أن تتسع لرؤيتها الخاصة للأديان، فهي بحكم دراستها المتعمقة في تاريخ الأديان، وخاصة الأديان التوحيدية للثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، تؤمن بأنها جميعا تسعى للحب، والعدالة والسعادة للإنسانية، ولكنها على العكس من هذه الرسالة السامية اتخذت منطلقا للكثير من العداوات والصراعات والحروب النووية.

وكتابها: "محمد، سيرة حياة النبي" الذي صدر بالإنجليزية عام ١٩٩٢، وبالعربية عام ١٩٩٨ بترجمة الدكتورة فاطمة نصر، والدكتور محمد عناني منشورات "سطور". يقدم رؤيتها للإسلام ولنبيه عليه الصلاة والسلام، متوجهة بخطابها للقارئ الغربي. ولقد صدر كتابها لبوارجة الضجة الغربية الشرشة التي انفجرت بعد نشر الكتاب المسين الصيت "آيات شيطانية" للكاتب البريطاني الهندي سلمان رشدي الذي ليقط الموروث الغربي الكريه للعداء للإسلام، بما يحمله هذا العداء من عنصرية تضرب بجذورها في تاريخ قديم، لم يستطع الكثير من المثقفين الغربيين، رغم دعاوهم عن العلمية والموضوعية، أن يتخلصوا من تأثيراته الواعية واللاواعية. وقد جاء كتاب الكاتبة البريطانية

كارين لرمسترونج في توقيته المناسب، فهي تعرض لحياة بنى الإسلام محمد الذي حرف الكتاب الغربيون اسمه، واقتروا على حياته وعلى تعاليم الدين الذي أرسل به لقرون طويلة، لا تريد أن تنتهي. وهي، الكاتبة، بعرضها الموضوعي لحياة محمد، والذي يأخذ الإطار التقالي للقارئ الغربي في الاعتبار، تبين لهذا القارئ أن كراهية الغربيين وعداءهم لنبي الإسلام وللمسلمين، والربط بينهم وبين العنف والهمجية والشهوانية والتخلف "ثناقض" ما يدعيه الغرب من عقلانية، ومن تسامح فكري وعقائدي، وهي بوضعها يدها على هذا التناقض تهدم دفاعات القارئ الغربي، وتصيب زهوه بهويته العقلانية في مقتل.

وليس فيما تسرده الكاتبة البريطانية عن حياة النبي جديد، بالنسبة للقارئ العربي أو المسلم، فالمصادر الأساسية التي اعتمدت عليها الباحثة هي المصادر التقليدية للسيرة النبوية، كسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، ومغازي الواقدي، وتاريخ الطبري.. ولكن الجديد في كتاب الباحثة البريطانية هو قدرتها على استنتاج هذه الأحداث والوقائع القديمة بمعانيها الإنسانية الصيقة، وقدرتها - رغم الحرص على الحيادية - على النفاذ إلى جوهر دعوة دينية غريبة عنها وعن موروثها التقالي والعقدي، لكن إدراكها لهذه الصعوبات منذ البداية، ساعدها على اختراق الحواجز والعقبات التي تحجب حقيقة الإسلام السامية، وروعة كتابه المقدس، كما ساعدها على قراءة كتب المؤرخين المسلمين القدامى، قراءة واعية ومنصفة في الوقت ذاته، من خلال وضع هذه المصادر التاريخية الفنية والناضضة بالحوية،

في سياقها الصحيح زمانا ومكانا.

فكتاب السيرة المسلمون، لم يكتبوا سيرة نبيهم، كما كتب الكتاب المسيحيون سير قديسيهم بطريقة غير نقدية. أما كتاب السيرة المسلمين فقد تميزوا بتقنتهم التي لا حد لها في الشخصية التي يورخون لها، ليخرج القارئ بصورة واقعية مفعمة بالحياة عن ذلك الإنسان غير العادي، ومن الطبيعي القول بأن هؤلاء المؤرخين لم يكتبوا بنفس الأسلوب الذي يتبعه المؤرخون الغربيون المحدثون. فقد كانوا رجال عصرهم، وهكذا نراهم كثيرا ما يوردون القصصيات يضيفون عليها طابع الإعجاز التي يمكن لنا اليوم تفسيرها تفسيراً مختلفاً، لكن هؤلاء المؤرخين نجدهم يعون طبيعة مادتهم المعقدة، وأيضاً، يعون الطبيعة المراوغة للحقيقة. لكن المساواة بين البشر - وكما سنرى - سمة ذات جذور عميقة في الإسلام، وحتى إذا ما قيل أن سلسلة المصادر لا تتفق مع المتطلبات الحديثة للتاريخ، فالمؤرخون في حالتنا هذه يبذلون جهدهم كي تتساوى أهمية كل رواية للأحداث، وهم إذ يوردون كل الروايات لا يوافقون عليها جميعاً، وهذا في حد ذاته، برهان على أن هؤلاء المؤرخين القدماء، ورغم تبجيلهم الواضح للرسول، كانوا يضمنون سيرهم كل الروايات بكل ما يملكون من أمانة وصدق.

ونقدم الباحثة من خلال سردها لوقائع حياة النبي في المدينة محاولته إقامة مجتمع عدل وكفابة هو في جوهره تحقيق للمشينة الإلهية. ومن خلال سردها لغزواته ومعاركه الحربية، تقدم الباحثة مفهوماً جديداً للجهاد، يختلف جذرياً عن ذلك المفهوم

العدائي والمحموم الذي يقتله الإعلام الغربي، عن جهل وسوء قصد.. فخلافا للمسيح الذي اتسمت دعوته بالمسالمة، خاض لبى الإسلام معارك إيجابية وصراعات في الواقع لردع الظلم ورد العنوان "أى أنه وبلغة اليوم، قدم المثال على الفعل الإيجابي، فحروب الإسلام كانت دفاعية، وردا للعدوان، بالإضافة إلى أنها كانت وسيلة لفرض "السلام الإسلامى" الذى لم يكن فى ظله وقف حمامات الدم، وإقامة مجتمع عادل أساسه القيم الرفيعة، إذا فالجهاد هو التضلل المستمر ضد الذات، وضد الآخر من أجل تحقيق الإرادة الإلهية والعمل على إبعاد البشرية. كما أنه لم يقتصر على كونه وسيلة أو هدفا له قط، وعلى عكس ذلك، فهو دين الاستمرارية مع الماضى، وعقيدة سلم وتصالح.

وتفسر الباحثة للقارئ الغربى سر غضب وثورة المسلمين على كتاب "آيات شيطانية" وكتابه، وتأييد الغرب وتبنيه للكاتب والكتاب، فشخصية محمد تجاوزت المسلمين كشخصية تاريخية، لتصبح رمزا لكل ما هو مقدس وغال وعزيز عليهم، وأى امتهان لشخصية النبي، هو امتهان لمقيدة المسلمين وتاريخهم وتقاليدهم ووجودهم.. فالنبي محمد يعيش فى وجدان المسلمين، وفى أسلوب تفكيرهم، وفى طريقة حياتهم اليومية، وهو بالنسبة لهم الهوية الماضى والحاضر والمستقبل، ثم تنتهى رسالتها بقولها: "إن محمدا أتى بالإسلام، والإسلام دين سلام ووفاق، وأنه لن يختفى ولن ينزوى أبدا، وإن بقاءه فى عتفائه وقوته هو خير للبشرية، لأنه يدعو، كما دعا محمد، إلى إرساء قواعد الحب والعدل والسلام الإنسانى".

وتسجل الباحثة البريطانية كارين ارسترونج في كتابها "سيرة النبي محمد" ظاهرة استمرار الكراهية الغربية القديمة للإسلام، والنظر إلى النبي محمد على أنه عدو، فهذه الكراهية والعداء يواصلان ازدهارهما حسب تعبيرها على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يعد هناك ما يمنع الناس من الهجوم على هذا الدين، حتى ولو لم يعرفوا عنه إلا القليل!

وتحاول الباحثة تفهم أسباب ذلك العداء، وهي ترجعه إلى التحدي الذي واجهه الغرب من الدولة الإسلامية، ومن الفكر الإسلامي، وقد استمر هذا التحدي لقرون.. فعندما نشأت الإمبراطورية الإسلامية، في القرن السابع الميلادي، واستكت الفتوحات الإسلامية بسرعة لتشمل العالم المسيحي في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا، وهي المناطق ذات الأهمية القصوى لكنيسة روما، بدأ أبناء الغرب المأخوذون بهذا النجاح السريع والذاهم للإسلام يتسائلون: "إذا ما كان الله قد تخلى عن المسيحيين ورضى عن الكفار؟" وعندما خرجت أوروبا من عصورها القديمة وجدت استمرار توسع الإمبراطورية الإسلامية قائما وكانت أوروبا عاجزة عن التأثير في تلك الثقافة القوية والدينامية، وكان الفشل هو مال المشروع الصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بل إن الأتراك العثمانيين لم يلبثوا أن جاؤوا بالإسلام إلى عتبة دار أوروبا نفسها، وكان من المحال على المسيحيين الغربيين، بسبب هذا الخوف، أن يلتزموا العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية. وفي الوقت الذي كانوا ينسجون فيه خيالاتهم المخيفة عن اليهود، كانوا يرسمون



صورة شائنة للإسلام تعكس بواحث قلقة الذمينة.  
كان علماء العرب يهاجمون الإسلام باعتبارهم عقيدة تجديف  
في الدين، ويصفون محمدا بأنه المدعى الأكبر، ويتهمونونه بأنه  
أنشأ دينا يقوم على العنف، ويمتشق السيف لفتح العالم. وأصبح  
اسم محمد بمثابة البعير الذي يخيف الناس في أوروبا، وكانت  
الأمهات يستعملن نفس اللفظة في تخويف أطفالهن العاصين.  
لقد تحولت هذه الرؤية المزيفة والكاذبة للإسلام ونبي الإسلام  
لتصبح مؤثرا أساسيا في نظرة الغرب إلى العالم الإسلامي.  
وعندما التقى المسلمون بالغرب الاستعماري في القرنين الثامن  
عشر والتاسع عشر أعجب كثير من المسلمين بالحضارة الغربية  
الحديثة، وحاولوا تقليدها، لكن المدارس النضعة لأوروبيين  
والأمريكيين طوال القرنين الماضيين حولت هذا الإعجاب  
الإسلامي إلى استياء مرير، وأيقظ هذا الاستياء المبرر من جانب  
المسلمين الموروث العدائي القديم للغرب تجاه الإسلام  
والمسلمين.

وبعد أن تستعرض الباحثة بعض الكتب الغربية القليلة التي  
تروى السيرة النبوية، وتبدى ملاحظاتها النقدية عليها، تقدم  
للقارئ المنهج الذي ستتبعه، والذي يختلف بعض الشيء عن كتاب  
السيرة الآخرين من الغربيين، فنقطة انطلاقها أن المصادر  
التاريخية الإسلامية تجعلنا نعرف الكثير عن النبي أكثر مما  
نعرف عن مؤسسي الأديان الأخرى، كما أن دراسة حياته يمكن  
أن تهبنا إدراكا عميقا ومهما لطبيعة التجربة الدينية "جميع  
الأديان تمثل حورا بين حقيقة مطلقة تستمضي على التعبير،

وبين الأحداث الدنيوية، وفترة نبوة محمد تنبئ لنا أن نلخص هذا الحوار فحسباً دقيقاً أوثق مما يتيسر للباحثين في العادة".



وتستعرض الباحثة البريطانية العديد من الأساطير والخرافات التي صنعها المؤلفون الغربيون في العصور الوسطى ليشوهوا بها صورة نبي الإسلام في خيال شعوبهم ومن أبرز هذه الأساطير أسطورة "ماهاوند" وهو أحد الأسماء المزيفة التي أطلقوها على النبي العظيم، بداية من القرن الثاني عشر الميلادي، و"ماهاوند" هذا هو عدو الممالك المسيحية، ويوضح الباحث ر. و. ساذرن في دراسة له عن "صور الإسلام في الغرب إبان العصور الوسطى" عملية صناعة الأساطير الغربية عن الإسلام بقوله: "لاشك أنهم عندما وضعوا هذه الأساطير والأوهام، كانوا يرون أنها تمثل الصورة الحقيقية، إلى حد ما، للواقع الذي تصفه، ولكنها اتخذت بعد كتابتها طابعاً أدبياً وهبها حياتها الخاصة. ولم تتغير كثيراً صورة محمد واتباعه من أبناء الصحراء، على مستوى الشعر الشعبي، من جيل إلى جيل".

وترى الباحثة أن الطابع الخيالي لشخصية "ماهاوند" في الغرب، زاد من الصعوبة التي يواجهها الناس اليوم، إذا حاولوا النظر إلى شخصية النبي، باعتباره شخصية تاريخية جذيرة بالدراسة الجادة. وتشير إلى نفاق سلمان رشدي وسوء نيته في اختيازه الصورة الخيالية لشخصية "ماهاوند" في روايته "آيات

شيطانية" لتتطابق على أعلى مستوى مع الأوهام الغربية  
الراسخة.

وتكشف الباحثة عن الروح الاستعمارية التي سادت بين بعض  
مفكرى القرن التاسع عشر، فلوحت إليهم بتفوقهم على الأجناس  
الأخرى من الهمج فى آسيا وأفريقيا، والتي انعكست فى النظرة  
إلى الإسلام، ويعبر الشاعر الفرنسى "شاتوبريان" عن هذا المثل  
الصليبى الأعلى بعد أن بهرته حملة نابليون، فكتب يقول: "أن  
الصلبيين حاولوا نشر المسيحية فى الشرق، وهى أقرب الأديان  
إلى إنكاء روح الحرية ! ولكنهم اصطدموا فى جهودهم الصليبية  
بالإسلام، وهو عقيدة معادية للحضارة، فهى تشجع بانتظام على  
انتشار الجهل والاستبداد والرق" ومن الطريف أن بعض مفكرى  
العصور الوسطى كانوا يهاجمون محمدا لأنه منح الطبقات  
الفقرى سلطات أكثر مما ينبغى، مثل العبيد والنساء، ولذلك أبدت  
الثورة الفرنسية إعجابها بالإسلام، لا لأنها عرفته أكثر، ولكن  
لأنه أصبح متوافقا - من وجهة نظرها - مع شعاراتها !  
ومن الطريف أيضا ربط الصليبيين الجدد فى القرن التاسع  
عشر بين اليهود والعرب، واعتبارهما معا - كما كتب شاتوبريان  
هذا "مجموعة متدنية من عناصر الطبيعة البشرية" ثم يضيف  
المزيد من خزعبلاته العنصرية "يشهد المرء دلائل فى كل شيء  
على أن العنصر السامى، فيما يبدو لنا، عنصر ناقص بسبب  
بساطته. وإذا كان لى أن أضرب لذلك مثلا، قلت إن مقارنته  
بالأسرة الهندية الأوروبية تشبه مقارنة رسم بالقلم الرصاص  
بلوحة زيتية، فهو يفتقر إلى التنوع والثراء والحفول بالحياة،

---

وهي شروط الكمال".

ويدفع الفرنسيون الآن، غالبا، ثمن هذه الأفكار العنصرية  
للمسيونية العالمية أما عدائهم للإسلام والعرب فيستمر بلا  
مقابل!



## الوحي.. اللقاء بالحقيقة المطلقة

لا تزال الأسرار المقدسة للوحي، والاشرافات العليا للأرواح العظيمة، تلبي على التحليل الجاف القاصر على ما تدركه المناهج البشرية في بحثها الدائب عن الحقيقة. ولا تزال الحقيقة ذاتها، ومن هنا عظمتها التي تصل إلى حدود القداسة، ملتبسة وحمالة أوجه، وذات تجليات متعددة، تعطى لأشواق الناس إليها المعنى والأمل.

ومن الحقائق التي تربط الأرض بالسماء والله بالإنسان، والغيب بالواقع، والبشرى بالمقدس: حقيقة الوحي الإلهي كإحدى الحقائق العظمى.

لقد عاش الرسول العظيم - قبل لقائه بالوحي - خبرات روحية وإنسانية عميقة من تلك الخبرات التي تساعد الأفراد الأفاضل، على الوصول إلى حالة من السمو والشفافية تعلو فوق

خبراتهم العادية، إلى الروى والأحلام المحملة بالوعود المضينة  
 والصادقة كخلق الصبح، إلى الخبرة العظمى واللقاء المقدس مع  
 الوحي الذي رواه النبي صلاة الله وسلامه عليه، ونقلته إلينا كتب  
 السيرة النبوية، والذي بدأ بظهور الروح المقدس إلى جانبه وهو  
 يتعبد في الجبل، طالبا منه أن يقرأ، وكانت إجابته الأولى: "ما أنا  
 بقارئ". لست من القلة القارئة في مكة. ولست من رواة أساطير  
 الأولين، ولست كاهنا يقرأ الطالع. ثم يطوفه جبريل حتى يبلغ  
 منه الجهد، فينطلق لسانه بأول آيات القرآن الكريم "اقرأ باسم  
 ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي  
 علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم" ويرتعد الجسد النبيل، ويشعر  
 أن ما حدث فوق الاحتمال فيندفع من مكمنه الجبلي، ليتسلق  
 القمة، وليظهر له جبريل ثانية، وصوته يملأ أفاق السماء، يقول  
 له "يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه  
 فما أتقدم أو أتأخر، وجعلت لأصرف وجهي عنه في أفاق السماء،  
 قال: فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما  
 أتقدم أماسي، وما أرجع ورائي" (سيرة ابن هشام).  
 وتحاول الباحثة البريطانية كارين أرمسترونغ في كتابها "سيرة  
 النبي محمد" أن تقرب بين القارئ الغربي المعاصر، وبين  
 استيعاب ذلك الحضور الساحق للوحي الإلهي إلى النبي، مبينة  
 أن هذا الإحساس الطاعى بالحقيقة المقدسة الذي انتاب محمدا  
 سلام الله عليه وصلواته قد انسحق على إثر إدراك حضور  
 الرسل والأنبياء في معظم النواميس، وفي المسيحية، وصفت  
 بأنها رهبة خامضة ومبهرة، وسميت في اليهودية بالمقدس (..).

وكل ما خبره هؤلاء الأنبياء هو سمو حقيقة تتواجد خارج نطاق المفاهيم، وتدعوها عقائد التوحيد (الإله) وترجع طبيعة التجربة الرهيبة إلى كونها قد نقلت كلا من أولئك الأنبياء إلى عوالم مجهولة، نائية عن سلوان ما هو طبيعي من الأمور، كل ما فيها صادم، ولكنها أيضا مبهرة وتمارس جاذبية لا تقاوم، ذلك لأنها، وبطريقة ما، تحمل معها ذكر شيء مألوف يرتبط ارتباطا معقدا بأعماق النفس\*.

لم يكن في وعي النبي تعاليم دينية سابقة تساعد على فهم ما حدث واستيعابه، لم يكن شمة غير السيدة خديجة الزوجة الرووم، ليلقى بنفسه في حجرها وهو يرتعد طالبا منها أن تكثره لتحميه مما حدث له، وكانت السيدة العظيمة عند حسن ظن نبيها في تلك المرة، وفي المرات التالية التي زاره فيها الوحي.

كانت السيدة العظيمة تعرف محمدا كما تعرف نفسها، وكان دفنها الأمومي مساعدا على اجتياز مرحلة الخوف، لتهدأ النفس النبوية إلى ما صارت إليه: "أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحم، وتصديق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". هكذا تكلمت السيدة خديجة، وعندما ذهبت لابن عمها ورقة بن نوفل العارف بالكتب المقدسة السابقة ليزيدها يقينا، صاح من فوره: "قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولى له: قليثت".

وحينما أبصر النبي بعد ذلك في الكعبة أسرع إليه وقبله على

---

جيبه.

وتشير الباحثة البريطانية في تحليلها لحقيقة الوحي، إلى أن كل الأفكار الخلاقة التلقائية موحاة، وتتطلب إغفرة إلى الأمام في عالم الحقيقة غير المختلفة. وإذا نحن نظرنا من تلك الزاوية، فإن الوحي لا يعنى تراجع العقل، لكنه العقل وقد تزايدت سرعته، وتم تكثيف محتوياته. لقد كان محمد قد وصل - قبل الوحي - إلى أعناق المشكلة التي تواجه مجتمع مكة، وجاء القرآن بحل روحى اجتماعى وسياسى، لم يخطر على تفكيرهم من قبل، لكنه لبى أعمق آمانيهم وطموحاتهم.





(٧)

قصص الأنبياء..

أو عرائس المجالس

لعل أشهر كتب قصص الأنبياء في التراث العربي الإسلامي، هو كتاب "عرائس المجالس"، لأبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي والمتوفى عام ٤٢٧ هـ، وقد كان الثعلبي واعظاً غلب عليه القصص، كما يقول القدماء. ويتبنا الثعلبي منذ بداية كتابه أنه سيشرح قصص الأنبياء المذكورة في القرآن.. ثم يمهّد لعمله بذكر بعض وجوه الحكمة في قصصه سبحانه وتعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين، والتي يشير إليها قوله تعالى "وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ". وما قالته الحكماء بأن هذه القصص جاءت لخمسة أمور:

أولها: إظهار نبوته، ودليل على صدق رسالته، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يختلف إلى معلم، ولم يرحل في طلب العلم ليعرف أخبار الأولين، إلى أن جاءه الوحي الإلهي، فأخذ يحدث بأخبار ما مضى من القرون، وسير الأنبياء الماضين، والملوك المتقدمين فمن كان من قومه عاقلاً موفقاً صدق بما يوحى الله إليه، وإخباره إياه بذلك، فأمن به ومن كان عنوا معاندا حسده وجده وانكر ما جاء به وقال كما أخبر الله تعالى "وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيل" وقال الله تعالى تكذبا لهم وتصديقا لنبيه عليه السلام: "قل أنزلناه الذي يعلم

السر في السموات والأرض\*.

والحكمة الثانية من القصص القرآني عن الأنبياء، هي الأسوة الحسنة، والعبرة بدلالات الأحداث، والقنوة بأخلاق الرسل، والنهي عما وقعت فيه أممهم من خطايا استوجبت العقاب الإلهي، وبذلك نعم الله لنبيه معالي الأخلاق وانب الأنبياء، ثم أثنى عليه ربه بقوله "وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ" ولذلك وصفته لم المؤمنين عائشة حين سألت عن خلقه، بقولها رضى الله عنها "كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنُ".

وبستخلص المؤلف من أقوال الحكماء عن الحكمة الثالثة في سرد قصص الأنبياء على النبي أنها إعلاء من شأنه صلوات الله وسلامه عليه وشأن أمته، فإطلاعه على أخبار الأولين وقصص المتقدمين، أعلمه أنه عوفي هو وأمته من كثير مما استحق به الله الأنبياء والرسل، وخفف عنهم في الشرائع، ورفع عنهم الأثقال والأحلال التي كانت على الأمم السابقة. وقد أول بعض المفسرين قوله تعالى: "واسمع عليكم نعمة ظاهرة وباطنة" بأن النعمة الظاهرة هي تخفيف الشرائع والنعمة الباطنة تضعيف الصنائع، قال تعالى: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" وقال تعالى: "وما جعلنا عليكم في الدين من حرج" وقال تعالى: "يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا".

ويؤكد الثعلبي في مقدمته لقصص الأنبياء على قيمة السماحة واليسر الإسلاميين اللذين اختص بهما الله المسلمين، مشيراً إلى فقر النبي عليه السلام بأنه بحث بالحنيفية السمحة. وفي الحكمة الرابعة من إيراد القرآن الكريم لقصص الأنبياء

يلمس المؤلف نقلاً عن الصوفي المعروف الشبلي، اختلاف مستوى التقى لهذه القصص بين العامة والخاصة، حيث "تشغل العلم بذكر القصص (أي بسردها وروايتها والإضافة إليها) واشتغل الخاص بالاعتبار بالقصص".

والاعتبار بالقصص يومئ إلى التأمل في الأنبياء وثوابهم، وفي أعدائهم وجاحدي رسالاتهم وعقابهم، وتحذير القرآن الكريم، في غير موضع، عن صنع الأعداء ومواقفهم، والحث على الاقتداء بالأنبياء والرسول. يقول الله تعالى: "لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين" ويقول: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب" وهدى وموعظة للمتقين" ونحوها من الآيات.

والحكمة الخامسة فيما قصه الله على نبيه من قصص الأنبياء والرسول الماضين، هي إحياء ذكراهم وأثارهم "ليكون المحسن منهم في إيقاء ذكره، مثبتاً له تعجول جزائه في الدنيا، حتى يبقى ذكره وأثاره الحصنة إلى يوم القيامة، كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام في إيقاء الثناء الحسن، فقال: "واجعل لي لسان صدق في الآخرين" والناس أحاديث. ويقال ما مات ميت والذكر يحييه" واتشد التريدي:

وإنما المرء حديث بعده... فكان حديثاً حسناً لمن وعى  
وقد صنف الثعلبي كتابه "عرائس المجالس" على نسق كتب المؤرخين القداسي. فبدأ بصفة خلق الأرض، وكيفياتها، وحدودها ومسافاتهما، وطبقاتها وسكانها. ثم ذكر الأيام التي خلق الله فيها الأرض، وأسماءها وألقابها. وهو يسند إلى وهب بن منبه، باعتباره أشهر رواة أخبار الأولين، أن أسماء الأرض السبعة

هي: الأديم - البساط الثقيل البطيخ- المتثاقلة الماسكة  
الثرى. وأما أسماء الأرض المذكورة في القرآن فهي سبعة أيضا:  
سماها الله: فراشا، فقال تعالى: "الذى جعل لكم الأرض فراشا"  
وسماها: قرارا، فقال: "لم من جعل الأرض قرارا" وسماها: رتقا،  
لقوله: "أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا  
ففتقناهما" وهي بساط، "والله جعل لكم الأرض بساطا" وهي مهاد  
"لم نجعل الأرض مهادا" وسماها، ذات الصدع، "والأرض ذات  
الصدع" ويعنى به الثبات، وسماها كفاتا "لم نجعل الأرض  
كفاتا".

وكما يستعين صاحب "عرائس المجالس بالموروث القديم،  
والإشارات القرآنية، يستعين بمعتقدات العرب قبل الإسلام عن  
الأرض، الذين كانوا يرون أنها "الأم التي منها الخلق، فهي أولى  
بأولادها أن يردوا إليها" وقد عبر الشاعر الجاهلي أمية بن أبي  
الصلت عن هذا المعنى شعرا بقوله:

والأرض معقلنا وكانت أمنا.. فيها مقابرنا، وفيها نولدا  
وقد امتدت هذه الرؤية في العصر الإسلامي، فقد سئل يحيى  
بن معاذ القرظي أن ابن أمم يدري أن الدنيا ليست بدار قرار، فلم  
يضمن إليها؟ فقال: لأنه منها خلق فهي أمه، وفيها نشأ فهي  
عشه، ومنها رزق فهي عيشه، وإليها يعود كفاته، وهي ممر  
الصالحين إلى الجنة.



---

## قصة خلق الأرض والإنسان

يتابع التعلیمی فی کتابہ المهم عن قصص الانبیاء، المسمى بـ "عرائس المجالس" قصة خلق الكون والإنسان، مستفيدا بطريقة العهد القديم الذي يبدأ بسفر التكوين، ولكنه لا يكتفى بإشارات وروایات العهد القديم، بل يحشد فی هذا الباب معظم ما وصله من مرويّات وأخبار شفاهية أو مدونة ليحفظ لنا ثروة كبيرة من الحكايات والأساطير التي حاول من خلالها العقل الإنساني في تلك المرحلة التاريخية تفسير ظواهر الوجود ومعجزة الخلق البشري.

ويقرأ التعلیمی دلالات كلمة "الأرض" فی القرآن الكريم ليربطها بمعانيها التي فهمها المفسرون والمؤرخون القدامى.. ثمة سبع دلالات لكلمة الأرض كما وردت فی القرآن الكريم.. فهي: إشارة إلى أرض مكة فی الآية "أو لم يروا أنا أنزلت الأرض ننقيها من أظرافها" وهي إشارة إلى أرض المدينة، فی الآية: "أو لم تكن

أرض الله واسعة فتهاجروا فيها" و"أن أرضي واسعة" و"وان كانوا ليستقروا من الأرض ليخرجوك منها" وهي إشارة إلى أرض الشام، في قوله تعالى: "اتخلوا الأرض المقدسة" وقوله تعالى: "ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين" وهي أرض مصر، في الآية "وكذلك مكنا ليوسف في الأرض" وقوله تعالى "قال اجعلني على خزان الأرض لني حفظ عليم" "وان ابرح الأرض" و"أن فرعون علا في الأرض" ويستخلفكم في الأرض" وكلها إشارات إلى أرض مصر.. ويستخدم القرآن الكريم كلمة الأرض بمعنى أرض المشرق، "ان ياجوج وماجوج مفسدون في الأرض" كان العرب يعتقدون أن أرض ياجوج تقع في أقصى الشرق، وفي الرحلة الشهيرة التي كلف بها الخليفة العباسي الرحالة ابن فضلان طلب منه استطلاع بلاد ياجوج وماجوج ضمن رحلته.

ثم يستخدم القرآن الكريم لفظ الأرض بمعنى عموم الأرض في الآيات: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" و"وما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم"، ويفسره التلعي بأن هذه المخلوقات أمم مثلنا في التصوير والهيئة، كما أنها مسخرة مثلنا لعمارة الأرض، ثم في قوله تعالى: "ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام" بمعنى تحول أشجار كل الأرض إلى أقلام.. وسابع دلالة للفظ الأرض في القرآن هو ما يشير إلى الجنة وأرضها في قوله تعالى: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" وقوله تعالى: "ولورثنا الأرض نبيوا من الجنة حيث نشاء فنم"

أجر العاملين".

وبعد أن يتتبع التعليل قصة خلق السموات وموردا الموروث الديني القديم، ومحاولا التوفيق بين هذا الموروث وبين ما ورد في القرآن الكريم عن السموات. وخلقهن، يصل إلى قصة خلق أبي البشر آدم، أخذا برواية العهد القديم الثانية التي وصلته عن طريق تراث الإسرائيليات، ومحاولا تفسير قصة الخلق والخروج من الجنة في ضوء هذا الموروث، لكن ما يلفت النظر هنا، أنه يورد كل الروايات التي وصلته ولا ينحاز إلى أي منها، وبذلك حفظ لنا الكثير من الحكايات والأخبار المقدمة عن قصة الخلق. وفي صفة "خلق حواء عليها السلام" ينقل عن المفسرين الذين سبقوه، والذين يبدو أنهم أخذوا بالرواية الثانية في سفر التكوين عن خلق حواء بعد خلق آدم ومن ضلعه، يقولون: "لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشى فيها وحشياً، لم يكن له من يجالسه ويؤانس، فالتقى الله تعالى عليه النوم فنام، فأخذ ضلعاً من أضلعه من شقه الأيسر يقال له القصيرى، فخلق منه حواء دون أن يشعر آدم بذلك ولا وجد له الماء، ولو أولم (تألم) من ذلك لما عطف رجل على امرأة، ثم لبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع الزينة وأجلسها عند رأسه، فقامت الملائكة لأدم يمتحنون علمه: ما هذه يا آدم ؟ قال: امرأة ! قالوا: وما اسمها ؟ قال: حواء.. قالوا: صدقت، ولم سميت حواء بذلك؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي، قالوا: ولماذا خلقها الله تعالى ؟ قال: لتسكن إلى وأسكن إليها.

وبعد أن نتبع التعليل قصة خلق حواء كما جاءت في كتب



المفسرين يتتبع قصة محنة الخروج من الجنة كما ذكرها أهل التاريخ على حد تعبيرهم. وهو يفعل في هذه القصة مثلاً فعل من قبل بايراد كل الروايات والأحداث والأشعار التي وصلت عن هذه القصة، ومما يورد في هذا المقام الرأي الذي يرى أن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخله فيها، وذلك لقوله تعالى: "أني جاعل في الأرض خليفة" ولم يقل: في الجنة. وهناك من يرى أن الجنة هي الرحم الذي سترد إليه بعد التكفير عن الخطيئة في الأرض، لو بعد أن يتخلص البشر ممن لا يستحقون الولاية والحياة في الحظيرة المقدسة.

وينسب أهل الأخبار إلى آدم أنه أول من نسج الصوف، وإلى حواء أنها أول من غزلته، ليتخذاً منه ثوبين يقياهما شرد البرد، ويربط المؤلف بين حرفة غزل ونسج الصوف وبين التأمل والتفكير، والتفكير يورث الحكمة، والحكمة تجرى في الجوف مجرى الدم، فمن كثر تفكره قل طمعه، ومن قل تفكره كثر طمعه، وعظم بينه، وقسا قلبه، والقلب القاسي بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار.

وينسب إلى وهب بن منبه أن الله قد أوحى إلى آدم بعد أن كفر عن خطيئته وتاب عليه، أن يجمع له العلم كله في أربع كلمات.. واحدة لله تعالى، وواحدة لآدم، وواحدة بين الله وادم، وواحدة بين آدم وبين الناس. فأما التي لله، لا يشرك به شيئاً. وأما التي لآدم، فإن الله يجزيه بعمله كل ما يحتاج إليه. وأما التي بينه وبين الله، فمنه الدعاء ومن الله الاستجابة. وأما التي بينه وبين الناس، فإن يرضى لهم ما يرضى لنفسه.

---

ومن الطريف هنا تلك الرواية التي تنسب إلى آدم أول من قال  
الشعر وبالعربية، عندما علم بقتل ابنه قابيل لأخيه هابيل، وهي  
جريمة القتل الأولى التي تغيرت من حولها الأظعمة، وأخبرت  
الأرض، فقال شعرا:

تغيرت البلاد ومن عليها.. فوجه الأرض مغير قبيح.. إلخ!!  
ويورد المؤلف ما قاله ابن عباس عن هذا الأمر، "من قال أن  
آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله".



(٨)

قصة أبي البشر آدم  
بين التوراة والقرآن

.. ترى الدكتور نبيلة إبراهيم في دراستها عن "السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي" أن الإسلام قد غير من مفهوم العربي للزمن، فلم يعد الزمن عند العربي المسلم زمنا حسيا نسبيا فقط، كما كان عند أسلافه قبل الإسلام، بل أصبح الزمن إلى جانب حسيته ونسبيته كونيا وسمديا أيضا مرتبطا بالبعث والحساب على ما فعله الإنسان في دنياه.

"وهذا أول تغيير أدخله الإسلام على مفهوم العربي لوجوده في الحياة. وهو مفهوم كفيل بأن يزيل الإحساس بالقلق حيث أنه لم يوجد فيها إلا الموت. ثم أكد الإسلام هذا المفهوم بتوضيحه لمسؤولية الإنسان في الأرض، فهو لم يخلق إلا من أجل السعي لحياة أفضل، ولا يتحقق هذا إلا من خلال أعمال عقله في اختيار العمل الصالح ونيل العمل الطالح، وبهذا يكون الإنسان مسؤولا عن النتائج، بقدر ما سيكون مسؤولا عن المقدمات. كما أنه سيحاسب على أن ما يفعله يكون وسيلة للبناء وليس معولا لهدم. ذلك أن الحياة بوصفها نظاما كليا لا يمكن أن تستقيم إلا إذا رجحت كفة الخير على الشر، فإذا حدث عكس هذا واستشري الشر بين قوم أبادهم الله وأحل محلهم قوما آخرين، كما حدث لنعاد وثمود وغيرهم".

وتفسر الباحثة انطلاقا من هذا المفهوم قصة نبي البشر آدم

في نصها القرآني، فالقصة القرآنية عن خروج آدم من الجنة ونزوله إلى الأرض، تختلف في صياغتها ودلالاتها عن نص القصة، كما وردت في التوراة، على الرغم من التشابه بين القصتين في خطوطهما المريضة، فالقصة القرآنية تبدأ قبل خلق آدم: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نطيع بحمذك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون".. وهذا يعني صراحة النص على أن آدم خلق ليعيش في الأرض لا في السماء، ولم يكن ما حدث في الجنة إلا برهان على اختلاف آدم عن الملائكة المبرزين من العيوب، فهو معرض للغواية، وعطيه وحده تقع مسؤولية التفرقة بين الخير والشر وبناء على ذلك فإن قصة آدم في القرآن لم تهدف إلى إثبات خطيئة آدم، كما أقرتها التوراة والإنجيل، بل إن ما فعله آدم يشير إلى طبيعة الأسمى ساكن الأرض".

ثم تؤكد الآيات القرآنية بعد ذلك حكمة الخالق في صنعة آدم على هذا النحو، وذلك في قوله تعالى "وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين" وليست أسماء المسميات مجرد أسماء، ولكنه الإدراك الذي يميز بين الشيء وغيره "بل لنقل أنه العلاقة بين الإنسان والموضوع. وهذا يمثل جوهر طبيعة الإنسان.. وجوهر قيمة وجوده في الأرض. ويتحدد هذا الجوهر بأن للإنسان فكر يتحرك في كل ما حوله، وهذا الفكر ينطلق مرة من الداخل إلى الخارج، ومرة أخرى من الخارج إلى الداخل".

وتنتهى قصة آدم كما وردت فى القرآن الكريم بوعيه  
 لتبئاته وتحمله لمسؤولياته، وهما أساس تصالحه مع ربه،  
 ورضاء الله عنه "فالتقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، أنه هو  
 الثواب الرحيم" ثم تحسم القضية بقوله تعالى "إنا عرضنا الأمانة  
 على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، واشفقن منها،  
 وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا" لقد حمل الإنسان  
 مسؤولياته الجسام على عاتقه ليمش بها ولها على الأرض،  
 وليصبح مسؤولا عن صنع حياته وحياة الجماعة الإنسانية التى  
 يمش بين ظهرانيها. هذه الحياة التى هى فى نهاية المطاف  
 مجرد حلقة من حلقات التاريخ الإنسانى، الذى أصبح الإنسان  
 مسؤولا عنه بالتبعية "كل هذه المفهومات أصبحت واضحة فى  
 عقل المسلم، بل أنه وسعها وصاغها على شكل مسائل فلسفية أو  
 كلامية خاض فيها علماء الكلام من الأشاعرة والمعتزلة، بعد  
 قيام الدولة العباسية، وبعد أن انتقل الجو الأدبى والفلسفى، كلية  
 إلى البصرة ثم إلى بغداد".

ولذلك لم يكن غريبا أن يبدأ تدوين السيرة النبوية فى بغداد  
 فقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصور من محمد بن اسحق أن  
 يولف لابنه المهدي (الخليفة فيما بعد) كتابا يذكر فيه كتاب البشر  
 منذ خلق الله آدم عليه السلام، إلى يومنا هذا، فذهب فسنف هذا  
 الكتاب، فقال الخليفة: لقد طولته يا ابن اسحق أذهب فاختصره،  
 فذهب فاختصره، فهو هذا الكتاب المختصر (يعنى سيرة ابن  
 هشام التى وصلتنا) ولقى الكتاب الكبير فى خزنة أمير  
 المؤمنين. لقد كان مقصد الخليفة المنصور أن يضع بين يدى ابنه

المهدي الذي سيرث الخلافة من بعده، كتابا يلم بأحداث الماضي ليكون ذخيرة تعينه على صنع الحاضر والمستقبل. وكان التاريخ في وعي الخليفة العباسي، هو أساسا تاريخ العرب في ماضيهم وحاضرهم، وكان الإسلام، حيث تقع أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وحكمه وتعليماته وحروبه في بؤرة هذا التاريخ المطلوب تكوينه، فمن أجل نشر دعوة الإسلام، تمت الفتوحات ونشأت الدولة وتمت وكبرت مسؤولياتها ومسؤوليات المسؤولين عنها من الخلفاء.. لقد أصبح التاريخ العربي في وعي المسلمين قيمة حضارية تؤكد وجود الذات الحاضرة، وتساعد على دحض الفكرة السائدة عند العرب قبل الإسلام والتي ترى الحياة مجرد مراحل عبور، معلومة البداية والنهاية. تبدأ بالميلاد وتنتهي بالموت. لم تعد الحياة كما عبر عنها الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم، في معلقته الشهيرة:

وكأن قد شربت ببعليك وأخرى قد شربت بقاصرنا  
وإنا سوف نتركنا المنيا مقدرة لنا ومقدرنا  
بل أصبحت الحياة الإنسانية موصولة بالله، وخاضعة لمعيار الحق والخير الجماعي، أصبحت سلسلة متصلة الحلقات تبدأ بالماضي لتستمر في الحاضر. وأصبح للإنسان وجود تاريخي.



وهناك تناقض واضح بين قصتي خلق الإنسان الأول اللتين وردتا في الإصحاحين، الأول والثاني من سفر التكوين في العهد القديم من الكتاب المقدس (التوراة).. ففي الإصحاح الأول ورد

أن الله خلق حتى اليوم السادس من بدء الخليقة كل الكائنات الحية التي تعيش على الأرض أو في الماء أو في الهواء ثم خلق أخيراً آدم وحواء كليهما على صورته. أي أن الإنسان قد خلق بعد أن خلقت الكائنات كلها، وأن الإنسان منذ البداية قد انقسم إلى ذكر وأنثى، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة الأصل الإلهي.

أما الإصحاح الثاني من سفر التكوين فنترد فيه قصة مختلفة، إذ نقرأ فيه أن الله خلق الإنسان أولاً، ثم خلق صنوف الحيوانات الدنيا بعد ذلك، أما حواء فقد خلقها بعد ذلك، وشكلها من ضلع انتزعه من آدم أثناء نومه. ومن هنا يبدو أن النظام الذي خلقت الكائنات على أساسه معكوس في القصتين، ففي القصة الأولى تبدأ بخلق الكائنات الحية الأدنى من الإنسان وتنتهي بخلق آدم وحواء معاً، وفي الثانية يخلق آدم وحده حيث يقول الإصحاح الثاني: "وجعل الرب الإله آدم ثراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية". ثم أراد الله أن يخفف من وحشة آدم في الجنة، فخلق الطيور والحيوانات، التي نظر إليها آدم وسماها بأسمائها، ولكنه كان لا يزال غير راضٍ عن هذه الرفقة، فخلق له الله حواء من جزء من جسمه لتكون زوجاً له. ويفسر عالم الأنثروبولوجيا الشهير جيمس فريزر في كتابه "الفلكلور في العهد القديم" التناقض الواضح بين قصتي الخلق، بأن كتاب التوراة قد استمداهما من مصدرين مختلفين، ثم جمعوا بين القصتين في كتاب واحد (سفر التكوين) دون أن يوائموا بينهما. وتبدو القصة الأولى مستمدة من الأصل الكهنوتي الذي



كتبه رجال الكهنوت اليهودى أثناء السبي البابلى، أو بعده، بينما تبدو قصة الخلق الثانية مستمدة من الأصل اليهودى الذى كتب قبل السبي البابلى بمئات السنين، وتحمل القصة الثانية قدرا من التناقض، كما تحمل نظرة دونية للمرأة، إذ تعزو إليها "محنة الجنس البشرى وأحزانه. التى سببه ملوكها المتقسم بالحماقة الساذجة. وشهواتها التى أطلقت لها العنان"... وفكرة عودة أصل الجنس البشرى إلى التراب، قديمة عند الميرانيين، إذ نجد أن كلمة "أمة" فى اللغة العبرية، وهى الصيغة المؤنثة لكلمة آدم، معناها الأرض، وفى الأدب البابلى القديم أيضا كان الناس يعتقدون بخلق الإنسان من طين، وكذلك الفراعنة والاعريق. وقد انتقلت هذه الفكرة إلى تلك الشعوب عن طريق اسلافهم البدائيين. وتصور القصة التوراتية طرد آدم وحواء من الجنة، وكأنها خوفا من مناقشتها له فى معرفة الخير والشر، وقيل أن يكتبيا أيضا صفة الخلود، إذا ما أكلنا من شجرة الحياة المحرمة عليهما. "وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والأن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا، ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليحمل على الأرض التى أخذ منها".

وتقارن الدكتور نبيلة إبراهيم فى مقدمتها لترجمة لكتاب فريزر المشار إليه سابقا. بين ما رواه التوراة وما رواه القرآن، لإلقاء مزيد من الضوء على مدى ما أعترض القصص الدينى فى التوراة من تحريف. قال تعالى فى سورة البقرة: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رجلا حيث شئتما، ولا

تقريبا هذه الشجرة فتكونا من الهالكين، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين"، كما قال الله تعالى في سورة طه: "فوسوس إليه الشيطان، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبنت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى".

تقدم الآيات القرآنية الخطوط العريضة لقصة آدم وحواء منذ أن خلقا في الجنة إلى أن طردا منها، ليعيشا هما ونسلهما على الأرض حياة غير حياة التحريم، أو هي بتعبير آخر اختبار لطبيعة الجنس البشري، تلك الطبيعة التي لازمت الإنسان منذ بدء الخليقة حتى اليوم، وهي التي تتمثل في ضعفه أمام قوة الإغراء المادي. ولما كان التجريد من أخص خصائص القرآن الكريم. لذلك فإن قصة آدم وحواء في القرآن تختلف اختلافا جوهريا عن قصتهما في سفر التكوين من العهد القديم (التوراة) ليس في طريقة المرد القصصي وحدها، وإنما أيضا في الهدف والغاية من إيراد القصة.

فحسب القرآن الكريم كانت عمارة آدم وحواء للأرض مقدرة قبلا، كما كان عصيان آدم مقدرا من قبل ونصبح القصة الدينية. عندئذ، تأكيداً للطبيعة الإنسانية، وجوانب ضعف الإنسان التي جعلته هدفا لإغراء الشيطان.

وقد أراد بعض مفسري القرآن الكريم إضفاء المزيد من التفصيلات على القصة القرآنية التجريدية الطابع، فتركوا لخيالهم القصصي مستعينين بالموروث القصصي لأهل الكتاب مما

---

عرف به "الإسرائيليات" تصوير كيفية خلق الخالق لأنهم، والطريقة التي أحضر بها طين الأرض وطبيعة الشجرة التي نهى الله عن الأكل منها، وإن كان هذا لم يمنع وجود مفسرين آخرين، وقفوا موقفاً نقدياً أمام هذه الروايات والتفصيلات المضافة، مثلما ذكر ابن جرير الطبري أمام آراء المفسرين الذين وصفوا الشجرة المحرمة، فقال: "ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التحريم. لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن أو في السنة الصحيحة. فإني يأتي ذلك من أتى، وقد قيل كانت شجرة البر، وقيل كانت شجرة العنب، وقيل كانت شجرة التين، وجائز أن تكون والحدة منها".



(٩)

التصورات العربية القديمة  
لقصة الخلق



كان الشعر فيما قبل الإسلام هو الوسيلة الأساسية للتعبير عن المعرفة، وعن الذات العربية الجمعية في المرحلة الشفاهية، وقد كانت كلمة "شعر" تعني أيضا "المعرفة والدراية".. وكانت للجماعة العربية تعتقد أن الشعر ينبع من المنطقة التي تفصل بين البشر وبين القوى الغيبية غير المدركة! ورغم أهمية الشعر في حياة العرب قبل الإسلام، فإنهم بالتأكيد لم يكونوا يتحدثون شعرا طول الوقت، فقد كانوا في أحوالهم المعيشية يتحدثون نثرا. لكن النثر في التراث الشفاهي لعرب ما قبل الإسلام قد ضاع بما حواه من أخبار وقصص وأتساب، وما سجله من أحداث وحروب قبلية وعادات وتقاليد وشرائع، أهمها جاسمو التراث في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، مركزين صلهم على تدوين الشعر البدوي اللوثي باعتباره أرشيفا لحياة عرب ما قبل الإسلام، وحتى ذلك الشعر، كان أغلبه قد هلك مع من هلك من أصحابه القدامى، قبل مائتي عام من تكوينه، وهو الأمر الذي أشار إليه واحد من أهم المراجع عن تلك المرحلة، وأعنى كتاب "الأصنام" لهشام الكلي، الذي يقرر أنه لم يحفظ من أشعار العرب غير شعر المرحلة القريبة من الإسلام.

وقد كان إدراك عرب شمال شبه الجزيرة لحدث الولادة وانكاساته في معتقداتهم يولزى إدراك سكان المناطق الحضارية

لحدث خلق الله للعالم، وهو الأمر الذي تعبر عنه مصطلحات  
القراءة: - الرحم ذو الرحم = الأخ من نفس الرحم - صلات  
الرحم - الحبل.

ويبرز في الشعر البدوي القديم "الجد الأول للقبيلة" كرمز لبداية  
الوجود البيولوجي والاجتماعي بشكل عام. ولا يبدو واضحا  
في ذلك الشعر وجود آخر مناسب لهذا الوجود، ولا أساطير أو  
بقايا أساطير عن نشأة الكون، أو عن صورة الإنسان الأول قبل  
ما جاء في التوراة والإنجيل عن آدم أبي البشر.

وأقدم البقايا الأسطورية العربية التي تصور نشأة البشر تعود  
إلى عصر الوحدة اللغوية والثقافية القديمة، وهو العصر الذي  
أصبحت فيه لغة موجودة مفهومة لكل العرب.. والنشأة البشرية  
في بقايا تلك الأساطير تعود إلى ثلاثة أشكال أساسية: الأرض  
بما عليها من جبال ووديان وصخور وجنادل وكثير من القبائل  
القديمة تنسب نفسها لهذا الأصل: بنو صخر بنو جندل إلخ..  
أما شكل النشأة الثاني فينسب إلى النبات: بنو شجرة بنو  
حنظلة إلخ.. وينتمي الشكل الثالث إلى الحيوان والطير: بنو أسد  
بنو نمر إلخ.

وتؤدي الكلمات: "صخرة حجر عجرة شجرة نمر،  
وغيرها من ألقاب الانتماءات وظيفية أسماء المائحين الأوائل لهذه  
التسميات، ومنذولها الحقيقي في السياق العام للتصورات  
الأسطورية عن أصل الإنسان التي انتشرت في آسيا الغربية  
وشبه جزيرة العرب. وتعود جذورها الدلالية إلى الأساطير  
القديمة، التي تضمنت روايات عن ظهور الناس الأولين. وهكذا

توجد علاقة محددة بين الألقاب الانتمائية: بنو صخر بنو حجر، وبين عبادة الأحجار التي انتشرت في شبه الجزيرة العربية في مرحلة ما قبل الإسلام، متمازجة مع عبادة الأجداد لدى قبائل عديدة. ويشير إلى ذلك ما يسوقه هشام الكلبى (نهاية القرن الثامن بداية التاسع) في روايته عن أن العقلة الوثنية القديمة في شبه جزيرة العرب نشأت من خلال إجلال الأجداد المؤسسين للنسل، الذين جعلوا الأحجار رمزا لهم. وهذه الأحجار التي ترمز إلى الأجداد قد تحولت إلى إلهة وموضوعات للعبادة ( ) وقد أظهر علم الأساطير المقارن أن مصدر إجلال وتقديس الأحجار والصخور يعود إلى التصور القديم جدا عن نشوء الإنسان الأول من الحجر. فقد تجلى هذا، التصور على الخصوص، في الأساطير الخيفية وأساطير اليونانيين القدماء. وقد حفظت أسداء الأساطير عن نشوء الإنسان من الصخر والحجر في أسفار الأنبياء في الكتاب المقدس أيضا. وهذا التصور يعود كما يبدو إلى أقدم الطبقات من أساطير النشوء الإنساني ونشوء القبيلة عند الساميين للرجل الرعاة الذين سكنوا الهضاب والروابي الصخرية. ويشير القرآن الكريم والكتاب المقدس إلى خلق آدم من تراب، والكلمة التي تشير إلى التراب في الكتاب المقدس هي كلمة "عفر" التي تعني الغبار الأرضي، وهي في اللغة الأكادية السامية هي الأخرى بنفس المعنى دون أن ترتبط بخلق الإنسان، وهي بنفس المعنى في الآرامية والعربية. لوكلها فروع من المجموعة العربية السامية [ الأمر الذي يشير إلى معرفة عرب ما قبل الإسلام



للتصور القائل بخلق الإنسان من التراب، والذي عرفته التوراة والإنجيل. وقد كان العرب المجاورين لبيزنطة المسيحية يسمون المسيحيين بـ "بنو حبرة" مثلما ورد في ملحقة طرفة بن العبد لأن المسيحيين ينتمون إلى ادم أبي البشر، بينما ينتمى البدو سكان المضارب المشرعة إلى إنسان آخر. ويضرب بعض الباحثين الاختلاف بين الأسطورة التي تعود بخلق الإنسان الأول من الطين، وتلك التي تعود بخلقه إلى عيار الأرض، إلى كونهما تعبيران عن حالتين من التقاليد الأسطورية "هاتان الروايتان متشابهتان من حيث المضمون، ولكنها يختلفان في مظهر المادة التي استخدمتها الآلهة لخلق الإنسان: فهي طين في الحالة الأولى، وهي عيار الأرض الرملية في الحالة الثانية. وهذه الاختلافات في جوهر المادة الأولى للخلق إنما تعود، كما يبدو، إلى اختلاف التربة في أماكن سكن مبدعي هاتين الروايتين. وبالفعل، ففي السهول المليئة بالأنهار في بلاد ما بين النهرين، حيث ظهرت أسطورة خلق الإنسان من الطين، نجد أن الطين هو ما تتميز به التربة هناك، وهو المادة التي يستخدمها البناؤون والفخاريون. وفي نفس الوقت نجد أن معتقّي هذه الأسطورة من اليهود قد اعتادوا على التربة الصلدة في البراري والبتجات التي يغطيها الغبار الرملية الجاف = الغبار الغبرة التراب. وهذه المادة غدت مادة لخلق الناس من خلال التثديّل السومري الأكادي للموروث الملحمي الوارد في رواية الأسفار المقدسة، ومن ثم في الآداب الدينية، اليهودية والمسيحية، وفي الفلكلور". وهناك اشارتان في شعر ما قبل الإسلام إلى الانتماء لـ "عرق

للثرى". الإشارة الأولى فى شعر امرئ القيس، حيث يقول:  
إلى عرق الثرى وشجت عروقى.. وهذا الموت يسلبنى شبابى  
ونفسى سوف يسلبنى وجرمى.. فيلحقنى وشيكا بالتسراب  
والإشارة الثانية فى شعر الجاهلى مقيم بن نويرة، يقول:  
فعددت أبائى إلى عرق الثرى.. فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا  
وتختفى عبارة "عرق الثرى" طويلاً لتظهر ثانية فى شعر  
الأموى الفرزدق فى قوله:

أنا ابن الجبال الشم فى عدد الحصى وعرق الثرى عرقى فمن  
ذا يحاسبه!

وقد فسر شراح الشعر المئثرين بالإسرائيليات "عرق الثرى"  
كإشارة استعارية عن النبی إسماعيل جد العرب، بينما فهمها  
آخرون كرمز لآدم لئى البشر جميعاً.

على أن دلالة الاستعارة "عرق الثرى" أوسع من هذا المعنى،  
والأغلب أن الاستعارة ذاتها ظهرت على أساس تداعيات أخرى،  
لا يدخل فيها، بشكل خاص، دافع للخلق المتعمد للإنسان، الذى  
هو أساس فى الروايات السومرية والأكادية وروايات الكتاب  
المقدس.

وأهم هذه التداعيات كانت متعلقة بمعنى كلمة "الثرى" التى  
تعنى: التربة الرطبة المبتلة، التربة ما تحت الطبقة الأرضية  
المزوية بالمياه الجوفية، غور الأرض، التربة الباطنية وهى  
تعود إلى أقدم التصورات عن التربة التى تخصب بالرطوبة،  
باعتبارها بيئة تولد كل شئ ولم أصلية لكل شئ حتى بما فيه ذلك  
الإنسان نفسه وهو المعنى الذى أشار إليه الشاعر الجاهلى أمية

---

بن أبي الصلت المتوفى حوالي ٦٣٠ ميلادية في شعراء:  
والأرض معلقنا، وكانت أمنا      فيها مقابرنا وفيها نولد  
وقوله:

منها خلقنا، وكانت أمنا خلقت      ونحن أبناؤها لو أننا شكر  
ثم جاءت قصة الخلق في القرآن الكريم لتنتهي التصورات  
القبلية البدائية عن أصل الإنسان والمعتمد على الأنساب  
المحفوظة في الذاكرة في شكل منمنمات لا نهاية لها، ليتحول  
بالوعي العربي إلى الزمن التاريخي الذي يوحد ماضي الجنس  
البشري، ووحدة الله خالق البشر والحياة، محدثا تغيرا جذريا في  
تدوين تاريخ الإنسانية.



[الافتباسات من "تطور الوعي التاريخي عند العرب" بقلم  
غرياز انيفتش. في دراسات في تاريخ الثقافة العربية. القرون  
١٥/٥. دار التقدم موسكو].

(١٠)

الخيال الشعبي وقصص الأنبياء



شغل الوجدان الشعبي العربي بقصص الأنبياء، ولم تشبع روايات المؤرخين والإخباريين حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصورات وموروثاته إلى هذه الروايات والقصص التي حفظتها الكتب التاريخية والدينية، متأثراً بالسيرة النبوية، فقد بدأت السيرة كما نعرف بقصص إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، كما بدأت بعض كتب التاريخ كالطبري بقصة أبي البشر آدم وصولاً إلى النبي محمد عليهما السلام، الأمر الذي دفع الوجدان الجمعي إلى الاهتمام بقصص الأنبياء وخاصة أولئك الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم. ولا تزال المكتبات الشعبية في بعض الدول العربية، تعيد طبع هذه القصص في كتيبات صغيرة ورخيصة الثمن، لتباع في أسواق القرى والأحياء الشعبية، ومن هذه القصص قصة سيدنا إبراهيم\* وفي هذه القصة كما في غيرها من قصص الأنبياء يستلهم المؤلف الشعبي السيرة النبوية والقرآن الكريم، مستفيداً بهما في البناء الفني والسرد القصصي لسيرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام فهو يورد بعض تفاصيل الحياة الخاصة لسيدنا إبراهيم كزواجه، وأسفاره، وعلاقته بأبنائه، ليربط بينها وبين رسالته الدينية، ولخلق تكاملاً في القصة يصل بدايتها بنهايتها كما يستغل القاص الشعبي المجهول موضوع "الإسراء" المرتبط

بالسيرة النبوية، في سرد بعض أحداث قصة إبراهيم، حيث  
 تحكى السيرة النبوية نقلا عن ابن اسحق أن النبي إبراهيم عندما  
 أراد زيارة هاجر زوجته وابنه إسماعيل، في مكة، حمله البراق  
 من الشام إليهما فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله في  
 الشام.. وتورد سيرة ابن هشام حديثا مرفوعا إلى السيدة عائشة  
 رضى الله عنها، تقول فيه: "كان الرسول صلى الله عليه وسلم  
 كثيرا ما اسمعه يقول: أن الله لم يقبض نبيا حتى يخبره.. ويستفيد  
 مؤلف قصة إبراهيم الشعبية بهذا الحديث، فيدير حوارا بين النبي  
 إبراهيم وملك الموت الذي جاءه متكررا، والذي لم يقبض روحه  
 إلا بعد أن طلب منه إبراهيم ذلك. كما يربط المؤلف الشعبي  
 للقصة بين ما ورد في القرآن الكريم وبين سرد أحداثها، فهي  
 تصف النبي إبراهيم بأنه النبي الذي تجرى السنة الخلق كلهم  
 بتصديقه وتفضيله وتجييله في كل أمة، مستوحية الآية القرآنية  
 التي يدعو فيها إبراهيم ربه بأن يجعل له لسان صدق في  
 الآخرين.. وهو النبي إبراهيم المبتلى بأنواع البلاء، والمشهود  
 له بالوفاء، استلهاما لقوله تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات  
 فاتمهن" وقوله تعالى: "وإبراهيم الذي وفى" وتصفه القصة بـ  
 "الثلاث" وبـ "أول من أقام المناسك" وأول من ضحى، وأول من  
 ألقى في النار، وأول من أحيا الله له الموتى، وأول من هاجر لله،  
 كما تصفه القصة الشعبية بـ "الحليم، المنيب، والأواب" وهي  
 كلها صفات مستمدة من الآيات القرآنية الكريمة: "إن إبراهيم كان  
 أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين" "ولنا مناسكنا" و"رب  
 لنا كيف يحيى الموتى قال أو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن

قلبي" وقوله تعالى: "إن إبراهيم لأواه حليم" وقد أضاف مؤلف السيرة الإبراهيمية المجهول إلى ما استمدّه من السيرة النبوية والقرآن الكريم بعض روايات الخيال الشعبي، ليضع من هذا كله إطاراً قصصياً متكاملًا، يسرد من خلاله قصة سيدنا إبراهيم، بما يلتقى ومعتقدات جمهوره، والواقف الفنية، مستخدماً العديد من العناصر الفنية في تجسيد الأحداث ورسم صور الشخصيات، كما يفعل أي قاصّ محترف، فهو يستعين، مرات بالأحداث التاريخية التي وردت في كتب المؤرخين وكتاب السيرة القدامى، ويؤكدّها بالآيات القرآنية التي تشير إلى قصة إبراهيم وهو يلجأ إلى التحليل الخيالي المستند على الموروث الشعبي العربي والسامى، في شرح إشارات القرآن الكريم القصصية، فعندما يقول القرآن: "وفديناه بذبح عظيم" يفسر القاص وصف عظيم، بأنه كان كبشاً يزعى في الجنة لأربعين خريفاً، وهو الكبش الذي قربّه هابيل بن آدم عليهما السلام إلى الله، وقتله أخوه قابيل من أجله، ولذلك سمى عظيماً.. ثم يعال القاص الشعبي يومى "التروية وعرفة" في شعائر الحج بقوله ثم رأى إبراهيم عليه السلام فى منامه قائلا يقول له: يا إبراهيم أن الله يأمرك بذبح ولدك، وكان ليلة التروية. فلما أصبح تروى فى نفسه، أمن الله هذا المنام لم من الشيطان؟ فمن ثم سمى بيوم للتروية. فلما ألمسى رأى المنام ثانية، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله، فمن ثم سمى بيوم عرفة" ثم يصعد القاص الشعبي الموقف الذى يتها فيه إبراهيم لذبح ابنه إسماعيل، حيث يطلب إسماعيل من أبيه أن يكبه على وجهه (أى أن يجعل وجهه للأرض) حتى لا ينظر إلى وجهه، وهو يذبحه فيرحمه، وتحول رقة الأب على ابنه بينه وبين تنفيذ أمر الله.



وتنتهى قصة سيدنا إبراهيم الشعبية بموته، ويرسم مؤلفها لقاء سيدنا إبراهيم مع ملك الموت، هكذا: لما أراد الله سبحانه وتعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام، أرسل ملكا فى صفة شيخ هرم.. فبينما هو يطعم الناس، إذ هو شيخ كبير يمشى فى الخلوة، فيعرض إليه بحمار فركبه.. فلما رآه أتاه قدم إليه الطعام، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه، فدخلها مرة فى عينه ومرة فى أنفه ( ) وكان إبراهيم عليه السلام قد سأل الموت. فقال إبراهيم للشيخ حين رأى حاله: ما بالك يا شيخ تصنع فوجد عمره يزيد على عمر إبراهيم بستين فقال له إبراهيم: إنما بينى وبينك ستان، فإذا بلغت عمرك صرت مثلك، اللهم قبضنى قبل ذلك اليوم، فقام الشيخ فقبض روحه عليه السلام ولا يخفى ما فى هذه الفقرة من خيرة إنسانية، تكرر أن يوصلها كبار السن إلى تحلل الأعضاء، ووهن الجسم وفقدانه لوظائفه.

كما تشير قصة سيدنا إبراهيم الشعبية فى نهايتها إلى اتباعه للتشريعة الإسلامية، فنقول: "إن أول من صلى صلاة الصبح هو آدم عليه السلام حين اغبط من الجنة إلى الأرض ودخل الليل، ولم يكن يعرف الليل قبل ذلك، فخاف خوفا شديدا من الظلمة، فلما انشق الفجر صلى ركعتين شكرا لله تعالى، الركعة الأولى للنجاة من ظلمة الليل، والثانية شكرا لرجوع ضوء النهار، فكان ذلك سببا لكونهما ركعتين وفرضت علينا. وأول من صلى الظهر إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح ولده صلى أربعاً: الأولى شكرا لذهاب غم الولد، والثانية شكرا لنزول الفداء، والثالثة شكرا لرضاء الله تعالى حين مضرة الذبح، وكان ذلك منه تطوعا، وقد فرض علينا".

## موسى وأنبياء التوراة

ظلت اليهودية الديانة السماوية الأولى لأكثر من ألف عام، لأن أنبياء بنى إسرائيل الذين أتوا من بعد موسى عليه السلام حرصوا على تقويم الشريعة الموسوية مما كانت تتعرض له من تحريف. ويصف ابن الأثير في كتابه "الكامل" هذه العملية بتجديد التوراة. وصورة موسى كتنبي تجعله في مستوى متفرد عن الأنبياء الآخرين من بنى إسرائيل، ويفسر علماء التاريخ القديم اسم موسى بمعنى "المولود" ولكن رواية التراث العربي يفسرونه على أنه يعنى: "ماء وشجر" إشارة إلى المكان الذى عثر عليه فيه وهو طفل رضيع، على النيل، وترسم الكتب المقدسة صورة موسى الشاب، بلنه قوى قوة عضلية فائقة مكنته من قتل رجل بضربة واحدة، كما أنه استطاع أن يرفع وحده للصخرة الهائلة التى كانت موضوعة على فوهة البئر لكى تسقى ابنتا النبى

شعيب إلهما، الأمر الذي لفت نظر البنين إلى قوته ومروجه، كما دفع النبي شعيب إلى إهدائه عصاته متأكدا من قدرته على حملها، وكان شعيب لا يستطيع حملها.. ويرسم ابن الأثير، بما يورده من أخبار، صورة النبي موسى كما تصورها أصحاب التراث العربي ورواة سير الأولين، فهو ذو مروعة وخلق عظيم، فعندما دعت ابنة شعيب للقاء أبيها، وأجاب دعوتها، جعلها تسير خلفه لا أمامه، قائلا لها: "أنا أهل بيت لا ننظر في أعقاب النساء" وعندما وصل بيت شعيب، وقدم له الطعام، رفض أن يأكل، قائلا لصاحب البيت: "لنا من أهل بيت لا نأخذ على الميسر من عمل الآخرة، الدنيا بأسرها" ثم هو يستجيب للطعام احتراماً لعادات شعيب وأهله في إطعام الضيف عندما عرف ذلك.

وعلى عادة الأخباريين القدامى يورد ابن الأثير أخبارا أخرى ترسم ملامح تختلف قليلا عن الملامح السابقة إلى كان يتطلى بها النبي موسى.

أما عن نبوته فتتميز بالتقريب الذي حياه الله به، والذي يتمثل في توجيه كلام الله إليه مباشرة فضلا عن وساطة الملائكة. وهكذا فعندما لم يقدر زناد موسى رأى نارا من نور الله ممتدة من السماء إلى شجرة عظيمة من العوسج، وعندما اقترب من الشجرة الخضراء المتوهجة باللهب، استأخرت عنه فزع ورجع، وهنا نودي: أن يورك في النار ومن حولها يا موسى "لنا أنا الله رب العالمين" وعندما هذا وثاب إلى عظه نودي: "أخلق نعليك أنك بالوادي المقدس طوى" وعاد كلم الله موسى والناس لا

يقدرّون على النظر إليه، وفي ذلك قيل أنه بقى أربعين يوما ما  
راه أحد فيها إلا مات، كما قيل ما راه أحد إلا عمى، حتى أنه  
جعل على وجهه حريزة أربعين يوما لم يكشفها لما تنفّش من  
النور، لو أنه جعل على وجهه ورأسه برنسا أربعين يوما لثلا  
يرى أحد جهه".

ويتتبع الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في دراسته: "الأنبياء  
والمتنبئون قبل ظهور الإسلام" موضوعه التنقّع وإخفاء نور  
الوجه في التراث العربى والإنسانى، فد "الأسود العنسى" متبنى  
اليمن كان معتما متخمرا أبدا، ولذلك لقب بذى الخمار (القناع)  
ويقول عنه ابن الأثير أنه كان مشعبذا يرى قومه الأعاجيب..  
كما كان الثائر الخرسانى هاشم المروى (١٥٩ - ١٦١هـ) الذى  
ثار على الخليفة المهدى العباسى فى بلاد ما وراء النهرين،  
والذى كان يؤمن بالتناسخ والحلول، وكان يزعم أن روح الله قد  
تقمصته، وقد كان يلقب بـ "المقنّع" لأنه كان يظهر بالتباعه  
مرتديا قناعا منسوجا من الخيوط الذهبية لكى يبهز انظارهم،  
وكان يخبرهم أنه يلبس هذا القناع لكى لا يبهزهم بإشراق الأنوار  
الإلهية التى لن يطبقوا النظر إليها مباشرة. ولكن خصوم المقنّع  
من العباسيين فسروا لبسه للقناع بأنه كان أعور فكان يخفى  
عاهته بالقناع الذهبى.. وكانت نهايته بعد بأسه من شدة حصار  
عسكر الخليفة العباسى، أن التى بنفسه فى النار واتبعه أهله  
وخاصة مريديه، وماتوا جميعا محترقين، وهم على قناعة بأنهم  
سيصعدون مع "المقنّع" إلى السماء!

كما يقال أن أهل الإسكندرية ظلوا يضمعون قطعاً من الحرير

---

الأسود على وجوههم لمدة سبعين سنة بعد أن بناها الإسكندر  
الأكبر، خفية على أبصارهم من أن يخطئها بيائن الرخام  
الناصع!



## المعجزات الموسوية

هناك معجزات عديدة ينسبها رواة التراث لموسى عليه السلام، منها ما ورد في التوراة والقرآن الكريم ومنها ما تناقله رواة الأخبار والقصص ضمن ما تناقلوه من أخبار الأولين مثل النار التي رآها موسى تنبعث من شجرة العوسج الخضراء، وكف مطر الطوفان، وكشف الجراد، والقمل الذي أهلك الزرع، وكف الدم الذي تحولت إليه مياه الفراعنة طيلة سبعة أيام، ومسح أموالهم حجارة.. إلخ. وقد كان إنخال موسى يده في جيبه، وإخراجها بيضاء من غير سوء لها نور في بياض الثلج، وهي الكرامة التي وردت في القرآن، كما كانت عصا التي ورد ذكرها في القرآن أيضاً، ذات كرامات عديدة. ويصف ابن كثير عصا موسى بأنها كانت ذات شعبتين وفي رأسها محجن، ولم تكن وظيفتها بالنسبة له مجرد أن يتوكأ عليها

ويهبش بها على غنمه، ويحمل عليها زاده وماءه.. بل كانت  
تضئ له في الليلة الظلماء، كما كان إذا انتهى فأكبه من  
الفواكه، غرسها في الأرض، فتخرج لها أعصان تحمل القاكهة  
المستهاة. وعندما التقى موسى بالسحرة، تحولت عصاه بأمر  
ربه، إلى حية تسعى، لفتت ما صنعه السحرة من أعاجيب، وهو  
الأمر الذي جعل رئيس السحرة يؤمن بما جاء به موسى ويخر  
ساجدا هو ومن معه من السحرة أجمعين.

وهي عصا موسى التي ضرب بها البحر الأحمر، ففلقت،  
فكان كل فرق كالطود العظيم، وفتح فيه اثني عشر طريقا لكل  
سبط من قومه طريق، ثم التحطم البحر على فرعون ومن معه  
فأغرقهم.. وهي العصا التي ضرب بها المحجن فانفجرت منه  
اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين.

كما ينسب إلى النبي موسى معجزة إحياء الموتى، وكأنه  
المسيح عيسى بن مريم، ويقول ابن الأثير في روايته أن رجلا  
قتل رجلا وادعى أن غيره هو القاتل، وعندما احتكموا إلى  
موسى ليفصل في القضية أمر يذبح بقرة صفراء فاقع لونها،  
وأمر بضرب القاتل بلسانها، فبعث حيا وأرشد عن قاتله ثم مات،  
وقيل أن الهدف من ذبح البقرة الصفراء فاقعة الاصفرار، كان  
إحراق لحمها وجلدها، ليستخدم رماد الحريق في تطهير الماء  
الذي يستخدم الطهارة.

ويروي المؤرخون القدماء آخر كرامات النبي موسى،  
والخاصة بفتح مدينة أريحا على الجبارين من الكنعانيين، فبعد  
أن قاتل خصومه طوال النهار، وقاربت الشمس الغروب، وخاف

موسى أن يتركهم الليل فينصرون عليه دعا ربه أن يحبس عليهم الشمس فحبسها عليهم حتى استأصلهم، ودخل موسى المدينة فأقام بها إلى ما شاء الله أن يقيم، ثم قبضه الله إليه، ولا يعلم أحد من الخلق مكان قبره، كما يقول ابن الأثير ويشير الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في دراسته المسماة الإشارة إليها، أن مؤلفي "النشودة رولان" وهي النشودة الملحمية الشعبية الفرنسية والتي يرجع تاريخها إلى القرن الحادي عشر الميلاد، ترد بها قصة حبس الشمس، وإن كان مؤلفو النشودة يوظفونها كما هو معروف لتمجيد عزو الملك الفرنسي شارلمان لشمال الأندلس، فترة حكم المسلمين لها (١٦١ هـ - ٧٧٨) فيجد أن قاجا المسلمون جيش شارلمان، في جبال البرانس، بعد عودته من مدينة سرقسطة الإسلامية، تمكن شارلمان من التار لمقتل الكونت رولان. ولما كانت الشمس قد قاربت على الغروب كما تقول الملحمة الشعبية للفرنسية، فإن شارلمان المقدس، الذي نشر المسيحية بين قبائل الجرمان البدائية الأوروبية، دعا الله أن يوقف الشمس فوق الأفق، فاستجاب الله لدعاء الملك القديس، فلم تغب الشمس إلا بعد أن حقق النصر الكامل على خصومه المسلمين. "هذا ولا بأس أن تكون كرامة شارلمان القديس صدى لكرامة موسى التي تنسبها رواية أخرى إلى النبي يوشع، الذي خالف موسى بعد أن كان من أعوانه حيث يشير ابن الأثير وابن خلدون إلى أن يوشع هو الذي أدركه المساء ليلة السبت فدعا الله أن يرد الشمس، فرد فهزم يوشع الجبارين ودخل مدينتهم، وجمع غنائمهم لياخذها كقربان.



ومهما يكن من أمر فإن النظر إلى المعجزات والكرامات التي  
تنسب إلى الأنبياء السابقين على دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين،  
تظل جزءا حيا من التراث الإنساني المقدس، الذي يرى في  
النبوة تكريما إلهيا يرتبط بالوحي والإلهام الذي بهبه الله لمن  
يختاره من البشر.



تعرضت بعض كتب التاريخ والتراث لما سعى في العهد القديم  
(التوراة) بالوصايا العشر، فقد ذكر ابن الأثير ثلاثة منها فقط،  
كما أورد ابن عسبريه في "العقد الفريد" بعض ما أوحى به إلى  
موسى، ومنها قوله تعالى: "يا موسى أنت عهدي، وأنا الملك  
الديان، لا تستذل الفقير، ولا تغبط الغنى بشئ يسير، وكن عند  
ذكرى خائفا".

وقد أورد اليعقوبي، في تاريخه، وهو سابق على ابن الأثير،  
الوصايا كاملة وهي:

- أتى أنا الرب.. لا يكون لك إله آخر دوني.
- نقمى على مبغضى، ونعصى لمحبي.
- لا تحلف باسم الرب كذبا.
- أذكر يوم السبت لتطهره.. سبت الرب إلهك لا تعمل فيه شيئا  
من الأعمال.
- أكرم أباك وأمك لتطول أيامك في الأرض.
- لا تقتل.

- لا تزني. ويضيف ابن الأثير في روايته (من زنى وليس له امرأة جلدها مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجما حتى يموت).

- لا تسرق، ويضيف ابن الأثير: (من سرق قطعناه).

- لا تشهد على صاحبك شهادة كاذبة.

- لا تشته بيت صاحبك، ولا زوجة صاحبك، ولا عبده ولا أمته ولا حمارة ولا ثوره، ولا شيئا من مال صاحبك.

"هنا ولا يأس، من الإشارة إلى ما أوصى به النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأُمَّته حيث ينسب إليه قوله "أوصاني ربي بتسع، وأنا أوصيكم بها: (أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عن ظلمي، وأعطى من حرمي، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عبرا)

وهكذا تستمر التقاليد الحنفية الإبراهيمية حية بفضل سلسلة الأنبياء حتى موسى، قبل أن تعمل الدعوة المحمدية على تجديدها وإحيائها بشكل نهائي في الإسلام، فكما كان لموسى التكليم وصايا العشر، كان لمحمد الأمين وصايا التسع، كما أراد العرب الإسلامي.

(د. سعد زغلول عبد الحميد - مرجع سابق).

هذا ويرى كثير من الباحثين وعلماء الآثار الغربيين أن الديانة المصرية القديمة التي عرفت بالبعث والحساب، والعقوبة والثواب، طرحت - عبر التعاليم الأخناتونية - فكرة التوحيد، كما أن أرض مصر عرفت العديد من الأنبياء أصحاب الرسالات كإبراهيم الذي أقام بها زمنا وتزوج منها هاجر أم ولده إسماعيل

---

أبى العرب، ويوسف الذى خدم فى الإدارة المصرية ومات فيها  
ودفن على ضفاف نيلها، وأصبح تابوته، فيما بعد، شعار بنى  
"إسرائيل" فى حروبهم، ومن هنا يرى هؤلاء الباحثون أن الديانة  
المصرية كان لها تأثيرها، فى تلك الرسائل التى تلقاها، كما  
يرى البعض أن موسى يمكن أن يكون أميراً مصرياً!



## هوامش ومراجع

- ١- التراث القصص في الأدب العربي الدكتور محمد رجب النجار.
- ٢- سيرة ابن هشام.
- ٣- الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام الدكتور سعد زغلول عبد الحميد. في: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر - المجلد الثاني عشر ١٩٨٢.
- ٤- دراسات في العصر الجاهلي تأليف أحمد أبو الفضل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية القاهرة ١٩٦٧.
- ٥- القرآن والتاريخ الدكتور عبد العزيز كامل في: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر المجلد الثاني عشر ١٩٨٢.
- ٦- تطور الوعي التاريخي عند العرب، القرون ٦-٨ - بقلم غرياز نيفتش. في [دراسات في تاريخ الثقافة العربية القرون ٥-١٥- دار التقدم موسكو ١٩٨٩].
- ٧- السيرة النبوية بين التاريخ والتراث الشعبي الدكتورة نبيلة إبراهيم. في: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر المجلد الثاني ١٩٨٢.
- ٨- محمد.. سيرة حياة نبي تأليف كارين أرمسترونج

- 
- ترجمة د. فاطمة نصر والدكتور محمد عناني  
مطبوعات سطور. القاهرة ١٩٩٨.
- ٩- عرائس المجالس تأليف أبي إسحق أحمد بن محمد بن  
إبراهيم النيسابوري، المعروف بالثعلبي. القاهرة.
- ١٠- الفلكور في العهد القديم تأليف سير جيمس فريزر  
ترجمة د. نبيلة إبراهيم القاهرة.
- هذه بعض المراجع إضافة إلى ما ورد من إشارات لمراجع  
أخرى في متن المقالات، فمادة موضوع القصص الديني شديدة  
الغنى في المكتبة العربية قديما وحديثا.

رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٣٣٥٧  
التروقيم الدولي: 0-7413-977-01



بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية وبها بدأت إلى طويلة ثم مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمية بالجهود والتابعة والتمويل، خرجت من حدود المحلية وأصبحت بالاعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية منفردة تستحق أن تلتحق في كل دول العالم الناصي وأسمدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها في دول أخرى. كما أسمدنى كل التعمادة احتضان الأسرة المصرية واحتضانها وانتظارها وتلقاها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

والقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وقادته التميز. ورغم اعتماداتى الوطنية المتوعدة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة في الإبن البكر. ولجاء هذا المشروع كل سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومما لفت قلقة التطور تواصل إشباعها بالمعرفة الإنسانية. لمجد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وحالًا للثقافة. ولوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالي. تضيقه دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والطبع والأمين وتترسخ على مدى الأيام والمسنات زائدًا ثقافيًا أعلى وعشورى ومواطنى أهل مصر الحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

**سوزان مبارك**

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



**مكتبة الأسرة 2001**  
**مهرجان القراءة للجميع**

قرشاً ١٥٠